الأب جان پاول اليسوعيّ

إنه استوقفني

مسيرتي في الصلاة

إنَّهُ استَوقَفَني

مَسِيرَتي في الصَّلاة

لا مانع من طبعه

بولس باسيم

النائب الرسوليّ للّاتين

بيروت، في ١٩٩٢/١١/٢٥

جميع الحقوق محفوظة، طبعة سادسة ٢٠٠٧

دار المشرق ش.م.م.

ص.ب. ١٦٦٧٧٨

الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠

لبنان

http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-1149-7

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**

الجسر الواطي - سنّ الفيل

ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان

تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣

فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢

Website: www.librairieorientale.com.lb

E-mail: admin@librairieorientale.com.lb

E-mail: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان:

John Powell, S.J.

He touched me

Tabor Publishing

200 E. Bethany Drive

Allen, Texas 75002, U.S.A.

إنّه استوقفني

مسيرتي في الصلاة

تأليف

الأب جان پاول اليسوعيّ

نقله إلى العربيّة

الخوري بولس الصيّاح

طبعة سادسة

دار المشرق

بيروت

الطفولة: الخطوات الأولى

بعد ثلاثين سنة من الدوران والبحث عن مخارج في طرق مسدودة، وعى أغسطينوس، في لحظة من لحظات استسلامه، الأمر الأساسيّ الذي كان قد غفله فقال: «قلوبنا خلقت لك يا ربّ، وهي لن تطمئنّ إلى أن تستقرّ فيك». أدرك أغسطينوس في النهاية ما عبَّر عنه غوته Goethe بقوله: «كلّ تَوق بشريّ إنّما هو تَوق إلى الله». شأن أغسطينوس شأن العديد منّا؛ إنّه فقد إيمان الطفولة ليكتشف الله ثانية، في منتصف عمره، في فترة ربَّما كانت أشدَّ حزنًا، ولكنَّها أعمق حكمة.

نظر أغسطينوس إلى تلك السنوات مفكِّرًا، والمرارة في قلبه، فقال: «لقد تماديتُ في التأخُّر قبل أن أحبّك يا ربّ، بل أفرطتُ في التمادي قبل أن أحبّك. الذاكرة عند الإنسان، في الحقيقة، نعمة كئيبة».

لقد اتَّضح لي باكرًا جدًّا في حياتي، كما أتذكَّر الآن، أنّ قلب الإنسان، ذاك الوعاء السريع العطب، يبقى فارغًا إلى أن يسكن الله فيه. أنا متأكِّد من أنّ إيماني، وأنا طفل، كان صدى لإيمان أُمِّي، ولكنّه كان غير ذلك أيضًا. إنّها يد الله، كانت تستوقفني.

وكأنَّ لطفها يداعب روحي، وكان هناك جوع. وعندما كان يطفئ أبي وأمّي أضواء بيتنا ليأويا إلى الفراش في سكون الليل، كنت أظنّ أنّ أضواء الحياة تنطفئ وخفقان العالم كلّه يتوقّف، ويفرّق الجميع في سكون النوم. لذا يخفّ عمل الله في ذلك الوقت، فيصبح باستطاعته أن يصغي إليّ بانتباه أكبر. أنا لا أذكر كم مرّة حدث ذلك، ولكنّه حدث بضع مرّات على الأقلّ. فأحسست كلّ مرّة بدفء مريح إذ كنت أظنّ أنّ الله قد ترك كلّ شيء ليكون بكلّيّته لي أنا وحدي.

وكان قلبي يخفق لشعوري بقرب الله منّي عندما كنت آوي إلى بعض الأماكن الخفيّة. وكانت تبدو لي وكأنّ لونًا من الخرافة يلفّها، أو ربّما كانت مخيّلة الطفل عندي تضفي عليها ثوبًا رائعًا. وكنت أدرك إدراك الطفل على سذاجته، أنّ ذلك المكان هو بيت الله. وكم أعجبت بفرح أن يكون الله قد فتح في بيته شبابيك زجاجها ملوّن، وعطّره بعطر كأنّه الطيب (ربّما كانت تلك بقايا رائحة البخّور وعطر زهور المذبح). كان الغموض يشوب كلّ ما أرى وبه أشعر. ولكنّي كنت على يقين، في قرارة نفسي، أنّ في ما أرى أبعد ممّا أرى. إنّها يد الله، كانت تستوقفني. وكانت أولى لمعات إيماني تلوح في أُفقي،

وتَوقي إلى الله كان ينمو في أعماق نفسي.

أذكر أنّه عندما اقترب يوم مناولتي الأولى، كتبت ذلك التاريخ على كفّ يدي بحبر لا يمحى. ربّما كانت تلك مذكّرة الطفل إلى نفسه. ولكنّي أظنّ أنّه، حتّى في فترة بداية إيماني تلك، كنت أشعر أنّ لكلّ موعد لي مع الله أثرًا خاصًّا لا يمحى.

المراهقة: تحرُّكات تخطَّت في معناها كلّ توقُّعاتي

في الأربعينات، كان من المألوف، في المدارس الثانويّة التي يُشرف على إدارتها إكليريكيّون، أن يشترك غالبيّة الطلاّب في الذبيحة الإلهيّة، ويتقدّموا من المناولة كلّ صباح. قمت بذلك وأنا في مدرستي ولكنّي لا أعرف بالحقيقة لماذا كنت أفعل ذلك. بيد أنّي كنت أعي أنّ ذلك كان مهمًّا. وذاكرتي تكاد تضيق الآن بألف صورة وشعور، خلّفتها فيَّ تلك الاحتفالات التي كنّا نبدأ بها نهارنا.

رأيت يومًا ملصقًا يشجّع على المناولة، قرأت فيه: «إذا كنت لا تشعر بقوّة كافية، فربّما لأنّك لا تتغذّى بالخبز الذي عليك أن تأكل منه. جرّب خبز

الحياة على مائدة العهد، على شرف يسوع المسيح. أظنّ أنّ مواظبتي اليوميّة على الاشتراك في وليمة المسيح قد وفّرت عليّ الكثير من الآلام خلال فترة المراهقة. وخبرتي تلك جعلتني أبشّر بالقربان بكلّ اقتناع، ورسّخت إيماني بحقيقة نعمة الله. وأنا لم أكن عائشًا في مأمن من الأخطار؛ فخلال مجمل سني المراهقة عملت في شيكاغو، في فناء مؤقّت للماشية، أتسلّح دائمًا بسكّين، تحسّبًا للدفاع عن نفسي... ولقد تفوّقت بالملاكمة حتّى لُقّبت «بالملاكم». وحزت على عدد من الميداليّات في المناظرة والخطابة، وكنت أتكلّم عن الله بكلّ فخر، وأُدافع عن العقيدة المسيحيّة وعن الكنيسة كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. كنت مراهقًا أتخبّط في نفسي، ولكن دائمًا على أهبة الاستعداد، بل في توق إلى الدفاع عن إيماني.

الدعوة: «ما أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم»

كانت العادة أيضًا في الأربعينات أن تقبل المدارس الإكليركيّة الطلاّب عند إنهائهم المرحلة الثانويّة. فذات يوم، وأنا في السنة الأخيرة، إذا بي أمام مرشد روحيّ، وسمعت نفسي أقول له إنّني أريد

أن أُصبح كاهنًا. لو سئلت آنذاك، كما سألني هو، لماذا تريد أن تصبح كاهنًا، لأتى جوابي حذرًا وأسبابي غامضة. وربّما حاولت الإدلاء بالشروحات المناسبة، ولو شابها بعض الغموض، لتلك الخبرة التي بها أحسست بيَد الله تلمسني، وتيّار نعمته يدفعني بهدوء وثبات في كلّ يوم من عمري. خُيّل إليّ، لسبب ما، آنذاك، أنّ خدمة الله في الكهنوت هي أفضل ما يمكنني أن أفعل. والباقي بدا كلامًا بكلام. (وكم كنت بارعًا في فنّ الكلام هذا!).

ما من أحد في عائلتي أو بين أصدقائي أخذني آنذاك على محمل الجدّ أو صدّق ما كنت أقول. حتّى أبي ذاته، الذي كان متأكّدًا، في قرارة نفسه، من أنّني سأصبح محاميًا لامعًا، مكث حتّى لحظات ذهابي يشكّ في ما أقول. أذكر أنّه كان يروق لي أنّ الناس لم يصدّقوني. ما كنت أظهر بمظهر التقيّ، وكأنّني «من مصاف الذين، منذ صباهم، وُجدوا ليكونوا من خدمة المذبح». لقد كنت «الملاكم» والمناظر وعازف البيانو والراقص والبهلوان. ولكنّ قوّة حبّ الله الذي لا يقاوَم كانت تدفعني إلى ما هو أهمّ وتقودني إلى مكان أفضل.

بذور أزمة

عشيَّة دخولي إلى المدرسة الإكليريكيَّة، ذهبت لأُودِّع جيرانًا أصدقاء كانوا قد أهدوا إلى الصغار في العائلة لُعَبًا كان فقرنا آنذاك يحول دون شرائها. فظنّ الوالد أنّي ذاهب إلى الجامعة. وما إن تبيَّن له أنّي ذاهب إلى المدرسة الإكليريكيَّة، حتَّى بدت على وجهه علامات الأسى. وأظهر بوضوح كَم هو متأسِّف لقراري. وبادرني بالقول «إنّ قدراتي كلّها ذاهبة سدًى لأنّ الله غير موجود».

لقد كان رجلاً طيّبًا، وكالعديد من أمثاله، ما كان بوسعه أن يوفِّق بين وجود الله وما في العالم من حروب وآلام وشرور. ودَّعته بتهذيب، ولو ببعض الارتباك، وغادرته من دون أن يخطر ببالي أنّ بإمكانه أن يكون على حقّ.

ثمَّ أتى اليوم، ودخلت الابتداء في الرهبانيَّة اليسوعيَّة. وعندما أُخبر تلامذتي اليوم بما كانت عليه الحياة هنالك في الأربعينات، أشعر بأنَّه من الصعب عليهم أن يصدِّقوا ما أقول. لن أضعك أمام الامتحان، ولكنّي أؤكِّد لك أنّه من بداية يومنا، في الخامسة صباحًا، إلى التحدُّث طيلة النهار باللاتينيَّة، إلى الساعات الأربع التي كنّا نقضي في الصلاة،

مرورًا بفترات صمت طويلة، كلّ ذلك كان يشكّل لغالبيّتنا صدمة مروّعة.

أُولى عواصف الشكّ

عندما تبدّدت رهجة التحدّي الجديد واتّضح لي الثمن الحقيقيّ لتلك التلمذة، داهمني شكّ عنيف، تبعه تردّد زعزع حياتي وزرع الظلمة في كلّ زاوية من نفسي. أترى وجود الله حقيقة؟ ويسوع المسيح، هل هو حقًّا ابن الله؟ وهل الإنجيل واقع أم هو نسج خيال؟ هَرعتُ إلى الصلاة ولكنّي لم أجد هناك مَن يكلّمني. فإذا باختباري لله يتحوّل إلى وحشة قاتلة وصمت عقيم: كلّ ما كان قد مضى، وليس في الأُفق من وعد بميلاد جديد. آنذاك تردّدت في ذهني أصداء صوت جارنا بلجاجة وإلحاح: «الله غير موجود... الله غير موجود... الله غير موجود!».

نظرت من حولي إلى قساوة ما يحيط بي ورحت أستعرض حياة الابتداء تلك بخشونة عيشها وثقل حرمانها، وفي نفسي حزن عميق؛ فكأنّ في قلبي جنازة مستمرّة. لقد هجرني الله، وأنا وحيد في هذا المكان المقفر. ومعلّم الابتداء الذي كان عليه أن يقودني عبر تلك الصحراء، لم يرهبه إلحادي

المفاجئ. فنصحَ لي بالصَبر وطول الأناة مع نفسي ومع الله. ظننت أنّه لم يفهم عمق مشكلتي ولا مدى وقعها في نفسي؛ إنّه لم يحسّ بأنّ عالمي بأسره قد تزعزع.

هذا «الليل المظلم» من الشكّ دام أربعة أشهر طويلة، امتلأت كلّها بالفراغ والعقم. وبعد ذلك كانت بداية ما تبقّى من حياتي، خبرة روحيّة شكّلت محوَر تاريخي الشخصيّ. في كلّ مساء، كان المبتدئون يقضون ربع ساعة في فحص الضمير. كنّا نبحث في دقائق النهار عن كلّ خطأ، فعلاً أو إهمالاً، وكنت أشعر بأَنّ الشيء الوحيد الذي لم يكن خطأً في نهاري كان تحضير المركع الذي كان خشبه ينحت ركبتَي. وكنت أقول دائمًا إنّ نصف المعركة في فحص الضمير هو تركيز المركع في الشكل المناسب!

«إنّه استوقفني»!

حدث هذا مساء يوم جمعة في أوائل الربيع، وأنا أُحاول تركيز ذلك المركع لأبدأ فحص الضمير المسائيّ. فأحسست، كما بنوبة قلبيّة، بوعي عميق لوجود الله فيَّ. قيل، ما من أحد يستطيع أن ينقل

خبرته الشخصيَّة إلى إنسان آخر، وجلّ ما يمكنه أن يفعل هو تقديم تفكيره حول تلك الخبرة. إنّ هذه حقيقة لا شكّ فيها. ما أستطيع قوله، محاولاً إشراككم في خبرتي تلك، هو أنّني أحسست وكأنّني «بالون» يمتلئ فجأة من نسيم لذّة وجود الله المحبّ، ويمتلئ إلى حدّ التمزّق، فشككت في قدرتي على تحمّل المزيد من نشوة ذلك الانخطاف.

شعرت في عمق أعماقي أنّ الله استوقفني وتملّكني. وأنا أتكلَّم إليكم تترسَّخ قناعتي أكثر فأكثر بعدم قدرتي على إشراككم حقًّا في ما أحسست به. فكلّ خبرة شخصيَّة هي حقًّا أعمق من أن تُنقَل إلى آخر، ونقل خبرة اللقاء بالله، في عمقها، أصعب بمقدار ما يصعب على الإنسان فهم سرّ الله. فالله لا زمن يحدُّه ولا مكان، وما من عقلٍ بشريّ يقدر أن يحيط بعظمته اللامتناهية. ولمسات أُلوهيَّته تلك، التي تنقلنا لبضع لَحظات قصار إلى جواره، لا يمكن لكلمات بشر أن تعبِّر عن حقيقتها. كلّ ما يمكنني أن أقول لكم هو أنّه استوقفني وتملَّكني.

وإذا كان هنالك من شهر عسل في علاقة الإنسان بربِّه فذلك دام طيلة السنة التي تَلَت خبرتي تلك. كانت لمسات يده تتردَّد عليَّ من وقت إلى

آخر، وكانت دائمًا تفاجئني، فتخلق في قلبي بهجة لا وصف لها. وحدث أَنْ قرأت في تلك الفترة، وللمرّة الأولى، قصيدة لجيرار مانلي هيكنز، Gerard Manley Hopkins، فكأنّني بها التعبير الشعريّ الصحيح عمّا كان يجول في نفسي:

«لقد تملَّكْتَني
يا الله! يا معطي الخبز والروح؛
يا مَن تخطّ للعالم حدوده وتكوّن للبحر أمواجه؛
يا سيّد الأحياء والأموات؛
لقد حبَكْتَ منّي العروق والعظام،
وكوّنتَ جسمي،
ولمّا أوشكتُ، في فزعي،
أن أشوّه ما فعلت،
هَرَعْتَ إليّ بلمسة خلق جديدة من عندك،
وإذا بي أشعر من جديد بلمسة لطف من يدك
وأعود فألتقيك».

«من جديد أشعر بلمسة لطف من يدك وأعود فألتقيك». أذكر كم كنت أفكّر في أنّ يد الله تحرّك فيَّ رؤية جديدة، ونظرة إلى الحياة ما خبرتها من قبل. فكأنّني أضع على عينَي نظّارات للمرّة الأولى بعد أن كان في عينَي ضعف بل شبه عمى.

فتكشَّف لي عالم جديد بالغ الجمال للمرّة الأولى، وهذه النظرة الجديدة تبيِّن فقر الرؤية التي تعودَّتها في السابق. فالإيمان، في الحقيقة، أشبه بعَينَين جديدتَين في داخلي تشاهدان ما لم يكن بوسعي أن أراه من قبل.

وعندما كنت أشعر خلال تلك السنة الأولى بلمسات يد الله في حياتي، كنت أحسّ كبطرس على جبل طابور وهو يحمي وجهه من جمال نور الله ووهجه. وكبطرس أردت أن أقيم خيمة هنالك على جبل الله العالي. وكم كنت أودُّ أن أوقِّف الزمن لتدوم تلك البرهة لي. فألوانها فاقت كلّ ما كان يمكن لأحلامي أن تنسبح.

تعال تعال: لقد حضر زمن الشدَّة

أنا لست متأكِّدًا من حقيقة معنى القسم التالي من قصَّتي. لا أعلم هل إنّ المسيح افتداني، كما اقتاد يومًا بطرس ويعقوب ويوحنَّا، من علوّ جبل طابور، من الدفء والجمال، إلى الكآبة والصقيع. أم تراني تسبَّبت أنا بالصقيع رلكآبة؟ الأمانة أمر دقيق ومعقَّد، وقد يكون استسلامي لنعمة الله أتى سابقًا لأوانه،وأضعف ما كنت أظنّ. في كلّ حال، أخذت

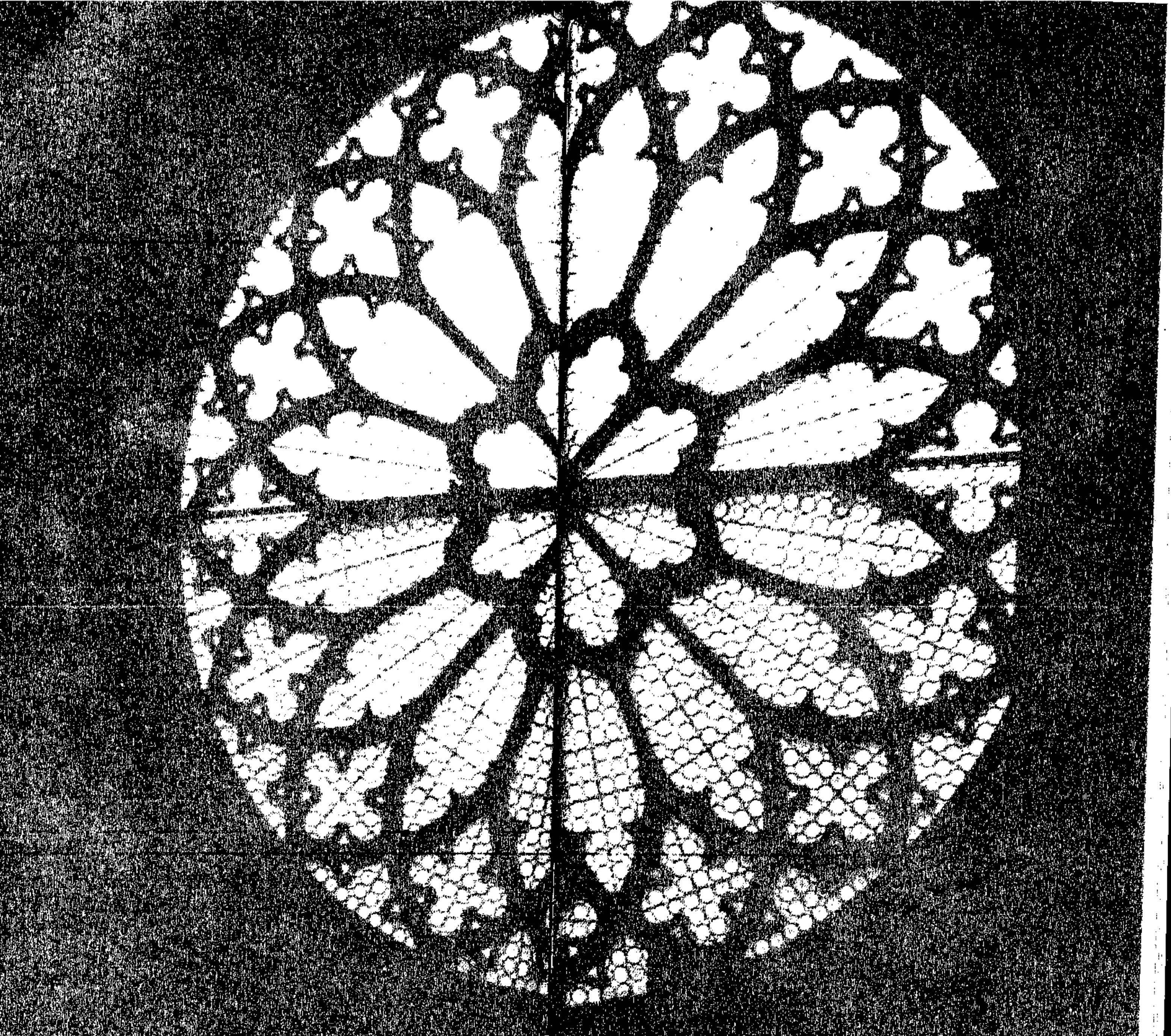

أنوار عالمي الجديد تشحّ ودفؤه راح يتبدّد لتحلّ في نفسي ظلمة الشتاء وبرده.

ولكن هنالك تبدّل حدث فيَّ وسيبقى. فبعد أن ذقت طعم حضور الله في نفسي، عرفت أنّه ستتعذّر عليَّ العودة إلى الملذّات الأرضيّة، لأبحث فيها عمّا يملأ فراغ غربتي. ما كان بإمكاني أن أجد الله، ولكنّني كنت على يقين، في الوقت عينه، أن ما من شيء أو شخص يمكن أن يملأ مقامه فيَّ.

وفي إحدى أُمسيات الصيف، وأنا جالس إلى طاولتي أدرس، إذا بفراشة أتت تتخبّط على زجاج شبّاكي، تحاول الوصول إلى الضوء الذي ينير طاولتي. ومرّة بعد مرّة كانت تلك الفراشة تندفع نحو الضوء، فتصطدم بالزجاج فتسقط. ولكنّها تنهض وتدور وتحاول من جديد. فطنت فجأة إلى أنّ تلك الفراشة، في خيبة فشلها، ترمز إلى محاولتي الوصول إلى الله. فكان بيني وبين وجه الله برقع عجيب وقد هجرني دفؤه وغابت عنّي لذّة حضوره. أتراني غير أمين، أم تراه يطلب إليَّ أن أُنمّي إيماني وأعمّق جذوره؟ إنّ في كلّ منّا ميلاً إلى البحث عن مؤاساة الله وليس عن إله المؤاساة. وربّما كان ذلك مختبر الحياة والحبّ الذي يطلب إليَّ من خلاله أن أتطهّر وأنضج.

كتب بول تيليش، Paul Tillich، أنّ دورة الموت والقيامة في المسيحيّة هي نفسها تتمثّل في نموّ الإيمان أيضًا. فالإيمان العتيق يجب أن يموت، أن يلتهمه الشكّ، ولكن ليولد مكانه إيمان جديد أعمق.

هجمات وهم: هنالك ما هو أكبر من الله

في الحقيقة، يجب أن أعترف أنّ وهمًا تسرّب إلى حياتي في تلك الفترة. الناس الخيّرون، وأظنّ أنّني واحد منهم، قلّما يؤخَذون بوَهم واضح المعالم. فإبليس لا يطلب أبدًا أن تكون الخطوة الأولى خطوة كبيرة. خلال السنوات التحضيريّة للكهنوت، لا سيّما في رهبانيّة تُعدّ أعضاءَها للتدريس، يأتي التركيز أوّلاً على العقل. نظريًّا، وكلّ في قرارة نفسه، كنّا جميعًا نحاول أن نصبح قدّيسين؛ هذا ما كنّا نقوله بقناعة عندما نصلّي. ولكن القداسة صعبة المنال وليس من السهل قياسها ولا التعرّف إليها. الله وحده يعرف ما في أعماق النفوس، ويعرف حدود الحبّ والإيمان التي هناك. نحن كنّا نقضي معظم نهارنا في الدراسة، مع أنّ بضع ساعات كانت تكرَّس للصلاة الفرديّة أو الليتورجية.

في عمق حنايا تاريخي النفسيّ، يبدو أنّني

فطرت على حبّ المنافسة، فكنت دائمًا أُحاول أن أكون الأوَّل، أن أكون الرابح. وكنت أقول مازحًا إنّي لن أسمح، حتَّى لجدَّتي، أن تغلبَني في لعبة ورق. ولكنّي عندما دخلت عالم الدراسة في الإكليريكيَّة، أخذت أشعر أنّ غريزة المنافسة عندي راحت تتضاءَل. وعندما أنظر الآن إلى الوراء بصدق، أرى أنّني بدأت آنذاك أشعر أنّي أبحث عمَّا هو أكبر من الله. ذاك كان الوهم بعينه. كنت أخلط بين المهمّ وغير المهمّ، بين الوسائل والهدف. فبدلاً من أن أهيّئ عقلي للمشاركة في بناء ملكوت الله، كنت أتهافت وراء نجاح يساعدني على تثبيت نفسي. وكنت أناضل كي تكون لي هويَّة الطالب «الذكيّ جدًّا».

ولكنّ المسيح قال: «أُطلبوا أوَّلاً ملكوت الله وكلّ ما تبقَّى سيُزاد لكم». وأثنى على العين التي تبحث أوَّلاً وقبل كلّ شيء عن مجد الله. أخبرنا عن «الدرّة الثمينة» التي على القلب أن يكتنزها؛ لأنّه حيث يكون الكنز يكون القلب أيضًا. عرفت كلّ ذلك عن ظهر قلبي ولكنّي كنت أجهله في قلبي.

هذا لا يعني أنّني ما كنت أصلّي خلال سنوات دراستي. في الواقع كان بحثي عن الله وهمًا، دون أن يكون بيني وبينه طلاق . ولكن غالبًا ما كانت

محاولات الصلاة عندي تقتصر على حركات خارجيَّة. فقلبي لم يكن كلّه هناك، بل كان مدينة مقسَّمة. فعنادي في التَوق إلى النجاح كطالب وكأستاذ أغرى بعضي، فأصبحت رؤيتي اثنتَين وقلبي غدا مقسَّمًا بين كنزَين. تلك كانت، بدون شكّ، سنوات مساومة. ولا يستطيع الباحث المساوم أن يرى وجه الله ولا أن ينفذ إلى قلبه.

في ضعفي، قوّته وطول أناته

لا يمكنني أن أبرّئ نفسي كما أنّه لا يحقّ لي أن أحمِّلها مجمل أعباء أخطاء تلك السنين. فالغلطة الوحيدة هي تلك التي لا نتعلَّم منها شيئًا، وأعتقد أنّي تعلَّمت من تلك الأخطاء الكثير. ولكنّه صحيح أيضًا أنّه إذا أردنا أن نتعلَّم علينا أن نحاول فَهم الأمور في عمقها. كيف حصل ذلك؟ ولماذا حصل؟ ومتى حدث ذلك الانقسام فيَّ؟ أتراها الطبيعة البشريَّة التي تكلَّم عنها القدِّيس بولس عندما قال: «إنّي أشعر في أعضائي بشريعة أخرى تحارب شريعة عقلي وتكبّلني بشريعة الخطيئة، تلك الشريعة التي هي في أعضائي». أعتقد أنّه علينا أن نصبر على أنفسنا، صبر الله علينا.

فالاعتبار أو الهويَّة اللذان يبحث عنهما الإنسان، هما، إلى حدّ بعيد، رهن «لردّة فعل الآخرين». فإذا أثنى الناس على قدراتنا الرياضيَّة مثلاً، خلق لدينا شعور بأنّنا رياضيّون. وإذا أعارنا الآخرون اهتمامًا بسبب أناقتنا، أصبحت الأناقة من صلب هويَّتنا. في تلك السنوات التي أهملت فيها ذاتي، كلّ ردّات الفعل التي كنت أبحث عنها كانت تتعلَّق بعملي في الصفّ. الأجوبة السريعة التي كنت أعطي، والأسئلة الذكيَّة التي كنت أطرح، والمقالات اللامعة التي كنت أكتب، والدروس المشوِّقة التي كنت أعطي. تلك كانت المقاييس التي حاول الناس من خلالها الحكم عليّ، وشيطان المنافسة فيَّ كان دائمًا يبحث، بكلّ اهتمام، عن استحسانهم وتصفيقهم لي.

وأخطر ما في الأوهام أنّها قد تتحوَّل إلى عادة، وكلّ عادة تكون في الصبا مرشَّحة لأن تصبح طاغية في الكهولة. أذكر ذات ليلة، وأنا في المدرسة الإكليريكيَّة، أنّي كنت أنتظر الأخ الممرِّض خارج غرفة التمريض حيث كان يُحضِّر كاهنَين مقعدَين للنوم. فراح أحدهما يتذمَّر بمرارة، غير مقدِّر أبدًا خدمة أخيه له. أمّا الثاني فقد شكر الأخ الممرِّض واعدًا بالصلاة لأجله قبل أن يخلد إلى النوم. وفجأة

فطنت أنّني سأصبح يومًا أحد هذين الكاهنَين: أنانيًا متعبًا أو محبًّا شاكرًا. ولكنّني عرفت، وأنا واقف أمام غرفة التمريض، أنّ مثل هذا القرار لا يتَّخذ عندما تقترب الحياة من الغروب بل في أيّام الصبا، خلال سنوات الدراسة. ماضينا يُلقي بثقله على حاضرنا وحاضرنا يُثقل بواقعه المستقبل.

الرسامة: كنت أودّ أن آتي راكضًا، ولكن...

أتيت إلى المذبح لأقتبل سرّ الكهنوت، وأتت عاداتي معي، وانقساماتي على نفسي وكذلك غموض هويّتي. وفي يوم رسامتي وهبت الله فقط قسمًا من ذاتي. لست أدري كم كان كبيرًا أو صغيرًا. ولم أحسّ بخجل من ذاتي لأنّه ما سبق لي أن وقفت أمام نفسي وصارحتها. إنّ للطبيعة البشريّة حِيَلها البارعة في التغلّب على الصعوبات والمشاكل. فالذاكرة تنتقي ما تريد أن تتذكّر، وكذلك العين ما تريد أن تشاهد. وإنّنا غالبًا ما نسمع فقط ما نريد أن نسمع. وبعد أن قدَّمتُ ذاتي محرقة علنيّة لله، لم يعد بوسعي القبول، في سرّي، أن أبحث عن بعض أجزاء تلك التقدمة التي لم تحرق. فما كانت المراوغة

يومًا طريقتي في الحياة، ولكنّ كلامي عن الحياة غالبًا ما كان أفضل ممّا تمكَّنت من أن أُحقِّق في عَيشي.

فيوم رسامتي كانت الشمس دافئة مشعَّة، وكان الأهل والأصدقاء يحتشدون في كنيستنا الرطبة. كنّا في بداية الاحتفال ننبسط على وجوهنا أمام المذبح. فانبساط طالب الكهنوت على وجهه أمام المذبح يرمز إلى موته، إلى تخلّيه عن ذاته وعن كلّ ما يعود عليه بالفائدة والمنفعة الذاتيّة. ينهض عندما يدعوه الأسقف، ونهوضه يعني أنّه الآن يحيا للمسيح فقط ولخدمة ملكوته، وأنّ كهنوته ليس سوى اتّحاد أعمق بالمسيح. إنّه يدعى، في الواقع، مسيحًا آخر. ومنذ ذلك الحين أعاني من البعد بين ما أقوله وما أنا ملتزم به فعلاً. وتلك المعاناة لم تكن في يوم رسامتي. كانت الشمس في ذلك اليوم تشعّ بكلّ أنوارها والاحتفال كان رائعًا، وأصبحت كاهنًا. بكت أمّي في ذلك اليوم وضمَّتني إلى صدرها طويلاً وفي عينيها بريق فخر واعتزاز.

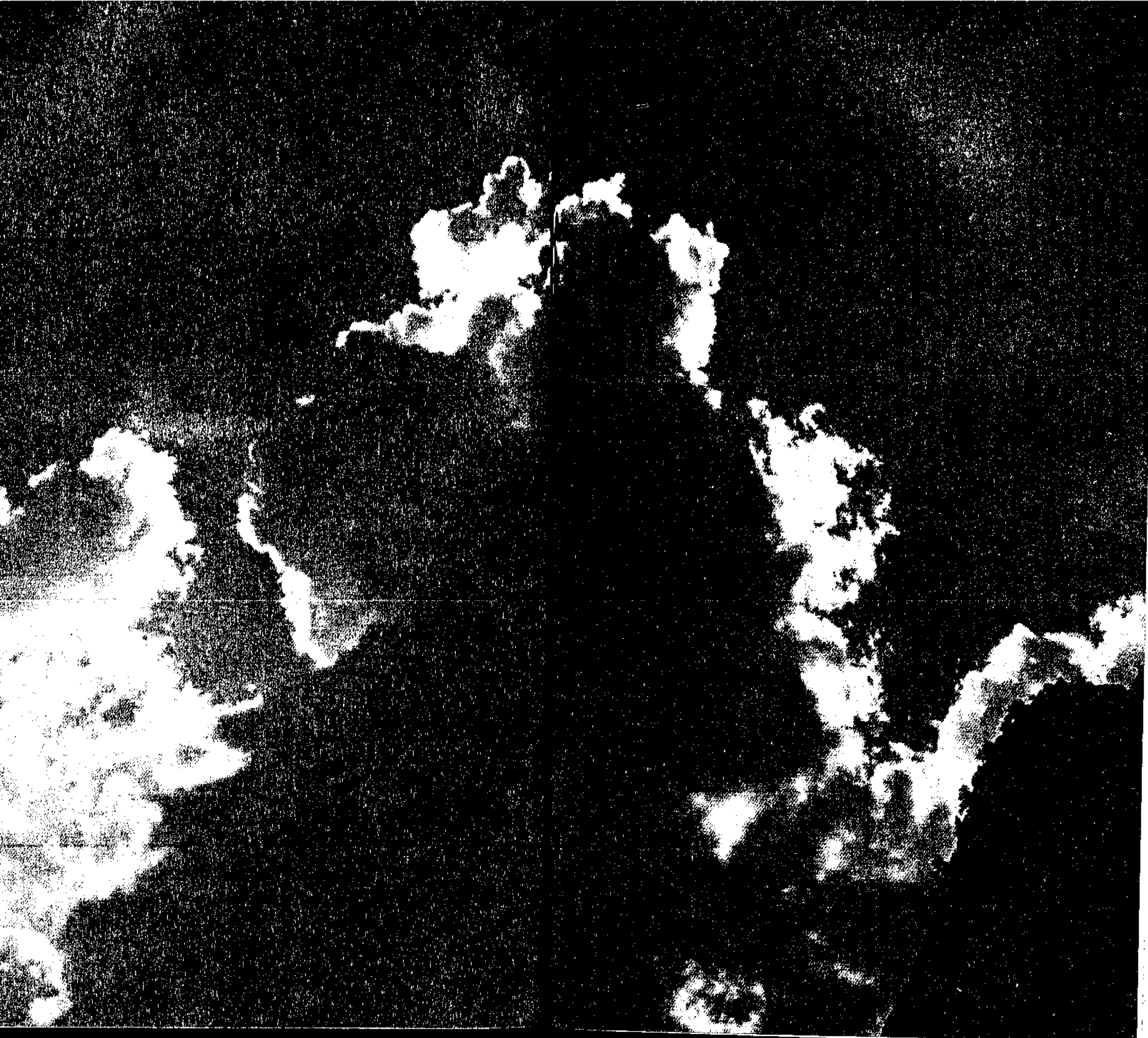

الأوهام القديمة لا تموت... أقلّه لا تموت بسرعة

بعد رسامتي تابعت الدراسة وحزت على شهادة الدكتوره من أوروبّا. كانت خبرتي هناك مثيرة، تعلّمت ثلاث لغات جديدة وقمت بكلّ الأسفار التي أمكنني القيام بها. ولكن لبّ القضيّة بقي حيث كان. فشهادة الدكتوره كانت قسمًا من السباق، كانت قضيّة منافسة، قضيّة ربح أو خسارة، وأنا لست ممَّن تعوَّدوا الخسارة. أتراها حاجتي إلى استئناف «رائحة البخّور»، أم إنّها قوّة العادة القديمة؟

عدت إلى الولايات المتّحدة لأدرس في الإكليريكيّة التي منها تخرّجت، وأنا أتأبّط شهادة الدكتوراه مدموغة بعلامة امتياز. وستبقى الأمور على حالها طيلة خمس سنوات. فميزان الفشل والنجاح كان دائمًا نصب عيني، والنجاح وحده كان مسموحًا، كان عليّ أن أسير دائمًا في الطليعة. الأوّل في كلّ شيء. وإلى جانب هذا كلّه كان يعيش في العقل ذاته وفي القلب ذاته شخص آخر، خيِّر ومُحبّ ولطيف، يريد أن يخدم الله وشعب الله. كان يقوم بواجب الصلاة بانتظام ويتأمّل في الكتاب المقدَّس، ويقوم بخدمة مَن يلجأون إليه. وما

كان يعمل، لم يكن كلّه حسنًا ولا كان كلّه سيّئًا. إنّه ليس بمجمله أنانيًّا ولا هو تخلّى عن ذاته منتصرًا على أنانيّته.

النجاح، ما أجمله!... ولكن ماذا بعده؟

كان اتّجاه حياتي في تلك الفترة نحو المنحدر. أصبحت خطيبًا معروفًا، وقادني لساني إلى البعيد البعيد. وكنت أُحاضر في الصلاة واعظ. ولكنّي أظنّ أنّي كنت، في الحقيقة، أُحاول التعويض عن عمق ممارستي للصلاة بكثرة الكلام عنها. أصبحت أستاذًا ناجحًا، وكاتبًا ناجحًا، ومحاضرًا ناجحًا. ففاح عالمي كلّه برائحة البخّور. ولكنّي كنت أحسّ أنّ غيومًا تتلبّد في داخلي، وتنمو فيَّ بذور أزمة. أمّا جذور تلك الأزمة فكانت تعود إلى أنّي قاربت الأربعين وفي نفسي توق إلى تحقيق ما يعطي حياتي معنى أعمق. لقد برهنت أنّ بإمكانك أن تنجح، ونجحت مرّة تلوَ المرّة. والآن إلى أين؟ ماذا يمكنك أن تفعل إذا شئت ألاّ تتوقّف؟ لقد اعتاد الناس أن ينتظروا منك عملاً مميّزًا في الصفّ وفي قاعة المحاضرات، ومن على منبر الكنيسة. ولكن ماذا يعني كلّ ذلك في النهاية؟

إنّي أتذكّر بوضوح كيف كانوا يقدمّوني إلى الجموع، وكم كانت كلماتهم الحلوة تدغدغني فتدفعني من جديد لأحاول أن أكون على قدر ما كانوا يتوقّعون، وكانوا دائمًا يتوقّعون منّي الكثير الكثير. كثرت عليّ الدعوات وتعدّد الذين كانوا يريدون تقاسمي، فثقل العبء، ورحت أعطي من وقتي ومن جهدي ما أحدث لي ضيقًا في نفسي، لأنّه كاد يحول دون لقائي مع ذاتي. قال أحدهم يومًا، الكاهن بالنسبة إلى شعب الله أشبه بمضخّة المياه لأبناء البلدة. كلاهما منفعة عامّة، وكلاهما دائمًا حاضر للاستعمال. أحسست في الحقيقة أنّي كنت «أستعمل»، ولم يعد التبجيل ولا عبارات الشكر القديمة تكفي لتخفّف من أثقال أتعابي.

إلى أين كانت تلك الأمور تقودني، وما كان سيحلّ فيّ، لست أدري. إنّ للمساومة طريقتها في تأمين استمراريّتها. ولكنّ الأمر غدا الآن مختلفًا بالنسبة إليّ. لأنّ الله الكلّيّ الرحمة والطويل الأناة وسيّر تاريخ البشر قد دخل تاريخ حياتي من جديد، ومن مدخلَين رئيسيّين. «ها أنّي من جديد أحسّ بك وألتقيك». وضعت في خطّ جديد، أو قل ارتدادًا حصل في حياتي وتغيّرت في العمق من خلال خبرتَين اثنتَين.

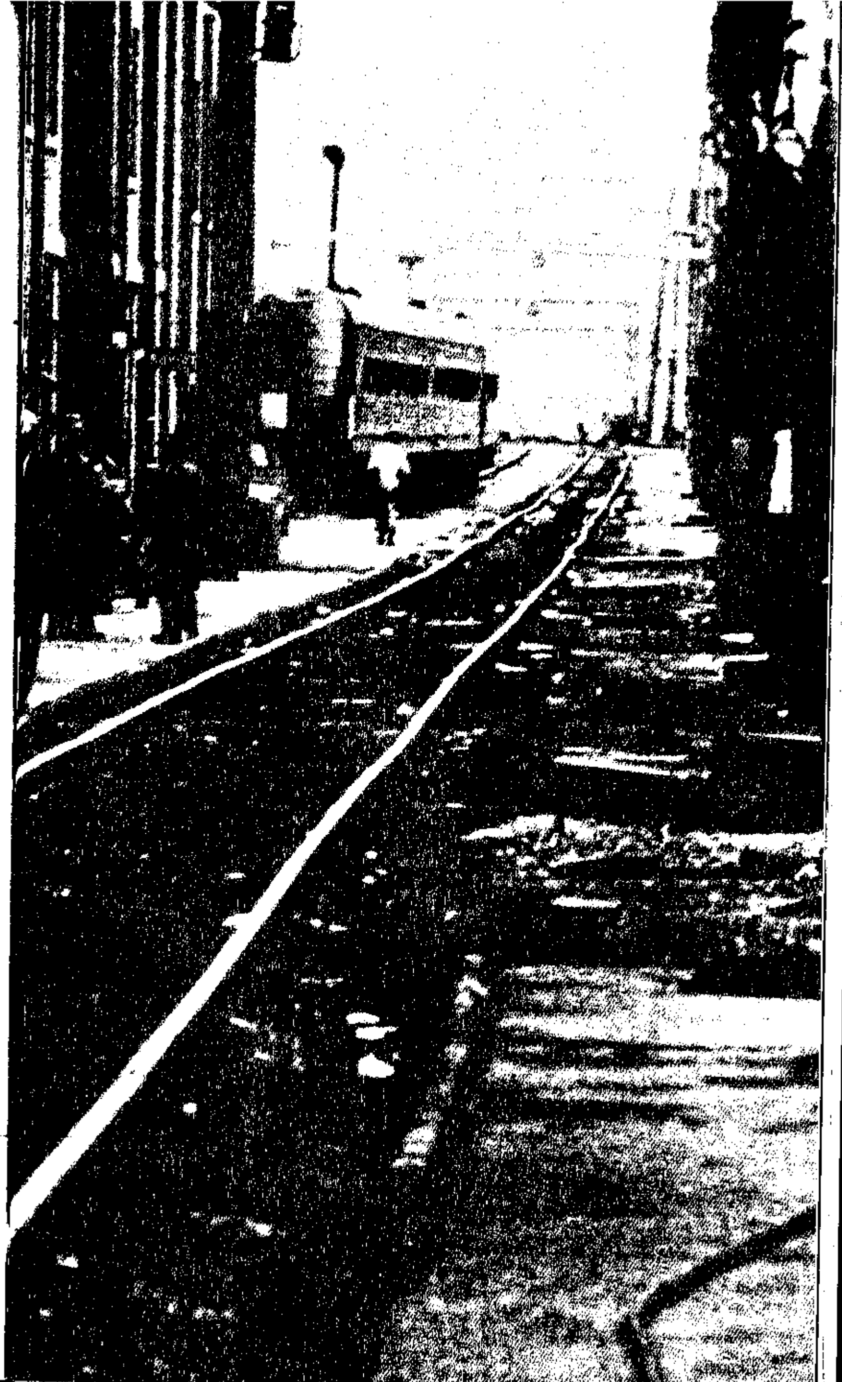

أسبوع قصير ونتائج بعيدة المدى

دعاني أحد أصدقائي إلى حلقات وتمارين تطبيقيّة في موضوع «الاتّصال»، وذلك لمدّة أسبوع كامل. وأعطاني كتيّبًا يعِدُ بأنَّ هذه الحلقات «ستجعل المشتركين يتعرَّفون بصدق إلى عواطفهم». أذكر أنّ ردّة فعلي كانت مخيفة. ولكنّي عدت حالاً وطمأنت نفسي أنّني على اتّصال تامّ بعواطفي. وفي اقتراع سريع فزت على نفسي بصوت مقابل لا شيء، واتّفقت مع نفسي أنّه ليست في حاجة إلى مثل تلك الحلقات. أخيرًا، وبعد إلحاح من صديقي، وافقت على الذهاب «فقط لأرى ما الذي يقومون به في مثل تلك الحلقات». فأتت النتيجة ثورة «كوبرنيكيّة» قلّبت حياتي فقلبتها رأسًا على عقب.

فكّرت في نتائج ذلك الأسبوع، فبدا لي واضحًا أنّي كنت أغشّ نفسي بنفسي فيما يخصّ عواطفي ودوافعي وأهدافي. كنت أحاول دائمًا أن أقول لعواطفي كيف يجب أن تكون، رافضًا أن أسمح لها بأن تظهر هي على حقيقتها. وكنت منشغلاً أُحاول أن أكون في المجتمع كاهنًا قدّيسًا، فحبست حقيقتي عن الناس. كنت ألعب دور الكاهن، أدور كالإسطوانة أقول للناس ما سجّلته في نفسي خلال

سني تدريبي. لم أقل للناس أبدًا كيف كنت أشعر في الحقيقة، بل أخفيتُ ذلك حتّى عن نفسي.

لا يمكنني أن أتوقّف هنا لأتحدّث عن هذا المنعطف الهامّ في حياتي. فذلك سيستغرق كتابًا كاملاً. ويسرّني أن أقول إنّ هذا الكتاب قد أُنجز. أحسست يومًا أنّي أريد أن أشرك الآخرين في خبرتي، فكان كتاب عنوانه: «لماذا أخشى أن أقول لك مَن أنا؟» أذهلني نجاحه. فما من شكّ أنّه لدى العديد من الناس، كما لديّ، حاجة إلى أن يقبلوا عواطفهم ويعبّروا عنها بصدق.

وإنّي أذكر هذه الخبرة هنا لأنّها تركت أثرًا عميقًا على مسيرتي في الصلاة». والوعي العاطفيّ الذي أُحاول الآن أن اتفهّمه وأعيشه هو في أساس طريقة صلاتي الحاضرة. آمل أن أشرح ذلك بشكل أوضح في وقت لاحق.

إختار ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء

عندما كنت أتعلّم كيف أفيد عمليًّا من الوعي الذاتيّ الذي خبرت، قادني الله إلى المنعطف الثاني في تلك الفترة من حياتي. كنت أحاول أن أُساعد سيّدة تتخبّط في وضع نفسيّ مرضيّ، وطال ذلك

بضع سنوات. قدَّرت، منذ البداية، أنّ العمل معها سيكون طويلاً، وأنّ الجهود، في النهاية، لن تثمر إلاّ القليل من الارتياح والتقدُّم في مجابهة الحياة. وبما أنّي تعوَّدت النجاح وكنت أشعر دائمًا بحاجة إلى ما يثبت لي ذلك النجاح بسرعة، كنت أجد صعوبة كبرى في التعامل مع أمثال هؤلاء. فالنتائج تبدو بطيئة جدًّا وتفتقر إلى الثبات حتّى بعد أن تتحقّق. خلال الساعات الطوال الصعبة التي قضيتها مع تلك السيِّدة، بدا لي أمر واضح، وهو أنّ رغبتي في محبَّة شعب الله وخدمته ستمتحن بقساوة. وما حلمت يومًا أنّ الله الذي يخطّ خطوطاً مستقيمة بخطوط ملتوية، سيجعل من تلك السيِّدة سبيلاً لنعمته إليَّ.

خلال السنوات المتعدِّدة التي كنت فيها أُحاول مساعدة تلك السيِّدة، كانت حياة الصلاة عندي تتابع مسيرتها في طريق منحدر. وكنت أتعجَّب بل أضحك من نفسي أمام المسافة بين غنى الكلام الجميل الذي كنت به أتفوَّه، وفقر الطريق الذي كنت أسلك في حياتي. فآلام المناقضات في الحياة أشبه بآلام ثنائيَّة الرؤيا ترى شيئَين، وبعد برهة تبدأ تتساءَل أيّ منهما حقيقة، أو إذا كان كلاهما وهمًا. كنت قد بدأت أعي ذلك، مع أنّي كنت أسوِّف الوعي النهائيّ لواقع المساومة عندي، لأنّي كنت

على يقين أنّ الوعي سيفرض عليَّ أعباء تلمذة جديدة مكلفة.

كانت تلك السيِّدة آنذاك تأتي وتذهب، وقلقها هو هو؛ منغلقة على ذاتها، تخشى القرار، وفي نفسها ألم كبير. فلاحظت أنّها لا تزال متعبة مكبَّلة كما أتتني في البداية. لقد فشلت! وبما أنّي أكره الفشل، أحسست باشمئزاز وغضب.

مَن هو هذا الذي يشفي كلّ مرض؟

في أواخر ذاك الصيف،وقبل بدء الدراسة الجامعيَّة ، دقّ جرس الهاتف فسمعت صوت صديقتي المضطربة. عرفت أنّها ستطلب موعدًا آخر وأنّني سأتكلَّم معها وهي تردِّد المشاكل عينها، وكأنّها مقاطع في أغنية واحدة لا نهاية لها. ولكن كم يحلو للروح أن يفاجئنا.فالصوت الذي سمعت كان صوتها ولكنّه كان غير ذلك أيضًا.شعرت أنّ فيه سلامًا جديدًا،فسألت أكثر من مرّة أهي المتكلِّمة أم سواها. فقالت لي بهدوء أنّها لاتريد منّي موعدًا، لأنّها تأبى أن تزعجني، وأن تأخذ بعد من وقتي الثمين! وهدف المكالمة كي تقول لي كم هي شاكرة لصبري ومساعدتي لها خلال تلك السنوات الثلاث.

لم أصدِّق أذني. كان في صوتها تعمّق صدق، وتساءَلت كيف أنّ مثل هذا التغيير المفاجئ يحدث في واقع الحياة. فقلت لها:

«لقد تغيّرتِ أليس كذلك؟» أجابتني: «نعم». فسألت: «ما الذي حصل؟»

- «لقد التقيت المسيح»

- «إلتقيت المسيح. عرفت عنه في الماضي، أمّا الآن فأنا أعرفه».

- «أتقولين لي أنّك رأيتِ رؤيا؟»

- «لا، لم أرَ رؤيا، إنّي التقيت المسيح حقًّا».

- «لا أعرف هل تريدين مقابلتي أم لا، ولكنّي أريد أنا أن ألتقي بكِ من جديد».

وعندما وصلت إلى مكتبي، تحقَّقت عيناي ممّا ظننت أنّني سمعت. إنّها سيِّدة تعافت تمامًا. أنا لا أُريد أن أُقلِّل من قدر مساهمة علم النفس أن ينصّب ذاته مخلِّصًا أو فاديًا. فالعلاج النفسيّ لا يستطيع أن يقوم مقام حياة الإيمان. وما من عالِم نفسيّ يمكنه أن يعد مريضًا بمثل هذا الشفاء، بمثل هذه «الوحدة الداخليَّة» الجديدة .وما من جراحة تستطيع أن تمحو آثار الجراح النفسيَّة التي نحمل في ذواتنا. فمن

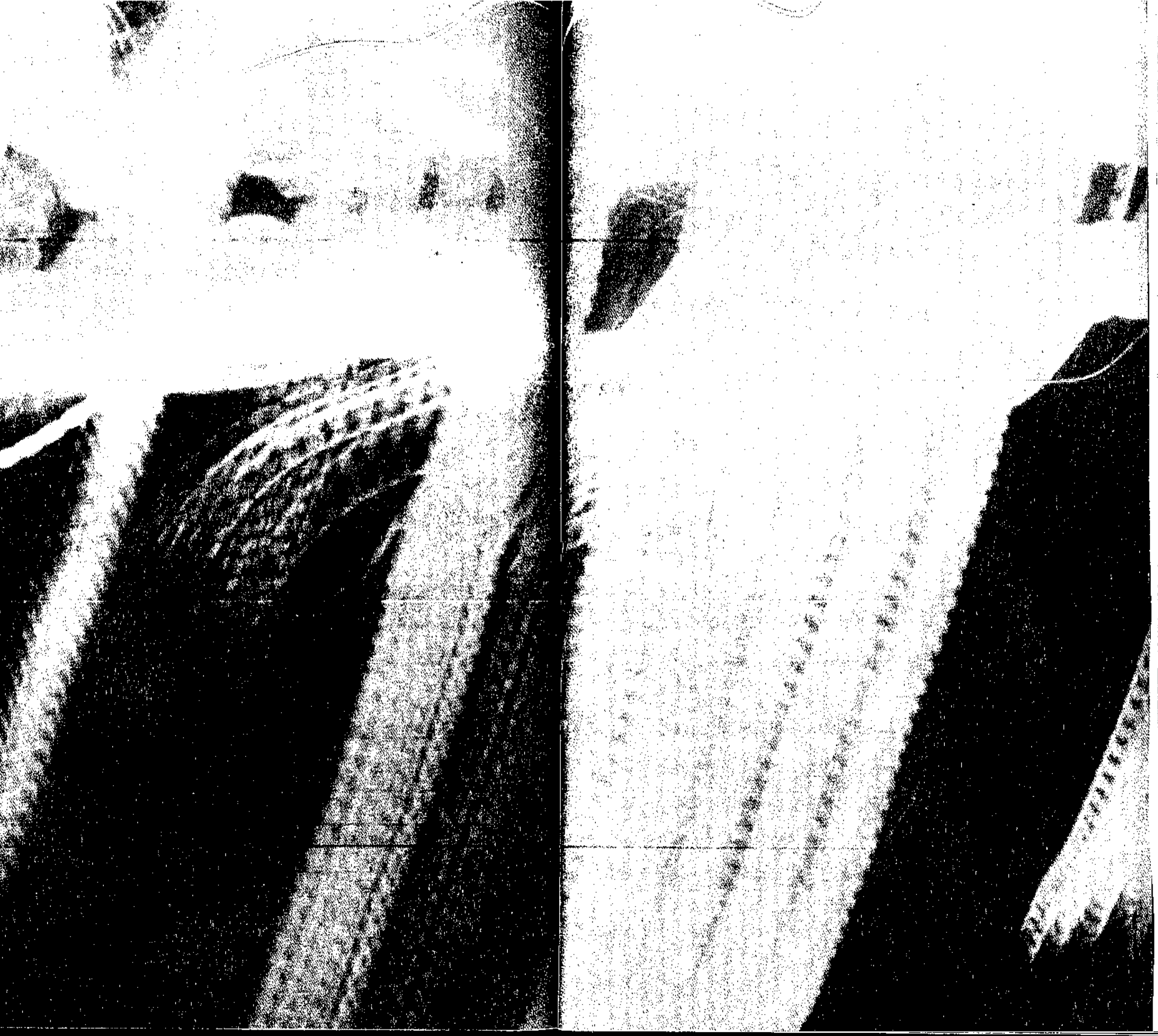

المعالجة النفسيّة ما يريح الإنسان القلق، ومنها ما يساعده على التأقلم وتطوير قدرات جديدة، ولكن... هذا كلّه لا يستطيع شفاء الإنسان المريض في عمق نفسه. هذه السيّدة الجالسة أمامي تعبّر لي عن امتنانها وتدّعي أنّها التقت يسوع المسيح وشُفِيَت، هي تعرف تلك الحقيقة، وأنا كذلك أعرفها.

بكلّ تواضع وتجرّد أخبرتني قصّتها. لقد تلقّت دعوة إلى اجتماع صلاة، فقرّرت الذهاب، لا لأنّها تريد أن تصلّي، ولكن ليمكنها القول إنّها جرّبت كلّ شيء، حتّى اجتماعات الصلاة. ولكنّها لم تكن مهيّأة لِمَا استهلّ به المسؤول ذلك الاجتماع إذ قال متوجّهًا إلى كلّ من الحاضرين بمفرده:

«لقد حضرنا إلى هنا الليلة لنصلّي. فإذا كان في قلبك رغبة في الصلاة أرجوك أن تبقى معنا. نحن نريد حضورك بل فينا حاجة إليك. ولكنّي أشعر أنّ من بين الحاضرين مَن دفع بهم الفضول إلى الحضور، فقط لكي «يتفرّجوا» على اجتماع الصلاة. فإذا كان هذا سبب حضورك، وإذا لم يكن قلبك مستعدًّا لمشاركتنا في التطلّع نحو الله، فأودّ، بكلّ احترام، أن أطلب إليك ترك الاجتماع».

يا إلهي! هذا هو القرار الأوّل، قالت لي: «قرّرت البقاء، ونأيت بنظري بعيدًا عن الباب الخارجيّ، لأحصر كلّ انتباهي بالله، ثمّ سمعت أحد المسؤولين يحثّ الناس على «الانفتاح» على الله.

«إفتحوا أبواب نفوسكم كلّها والشبابيك لله. لا تبقوا أيّة غرفة مقفلة أو مغلوقة بوجهه. دعوا المسيح يتسلّم القيادة. إنّ عمق الإيمان هو الذي يحرّر، وقدرة الله رهن بإرادتكم إفساح المجال لله كي يوجّه حياتكم. قدّموا ذواتكم هديّة له. ضعوا حياتكم بين يديه».

إنّه زمن الربّ: إسهروا وصلّوا!

في العهد الجديد كلام في «زمن» الله في تاريخ البشريّة وحياة الأفراد. إسهروا وصلّوا، يحثّنا المسيح، لأنّ لا أحد يعرف ساعة مجيء الربّ. أنا تعلّمت أن أؤمن بذلك بثبات وقوّة، بعد أن خبرته في حياته مرّات عديدة. وأنا على يقين أنّ تلك السيّدة كانت تختبر لحظة من «زمن» الربّ في حياتها. أحسست

أنّها عاجزة عن إرادة حياتها بنجاح، لذا قرّرت، بدعوة من أحد أفراد الجماعة المصلّيّة، أن تفتح للمسيح نفسها وحياتها، وتجعل له مقامًا في عالمها. سلّمت ذاتها إليه من دون شروط. أخذ كلامها على محمل الجدّ، فقبل تقدمتها وقبلها هي في مصاف أبنائه.

وممّا قالت لي: «إنّني من سنوات عديدة أشعر بأنّ بين الله وبيني حائطًا سميكًا وعاليًا. كنت أقذف بتقادمي الصغيرة فوق الحائط، آملة أن أجد في الجهة الثانية مَن يتلقّاها، فما كانت تقادمي شخصيّة ومرضيّة، ولكنّي ظننت أنّ تلك كانت أقصى حدود رجائي».

«في تلك اللحظة - ربّما لأنّ الكلّ في الجماعة كان يصلّي للكلّ - انهار ذلك الحائط بطريقة ما! وشعرت كأنّ يسوع يقف هناك باسطًا يديه يضمّني إليه. وكانت تلك المرّة الأولى التي شعرت فيها بحقيقة المسيح».

وبينما كانت السيّدة تتابع الكلام عن زمن الربّ

في حياتها، كان الله، بشكل عجيب، على موعد معي أنا. كنت أُحاول بنَهم أن أتذكَّر كلّ قصص الله في حياتي، ذاك المساء الذي كنت فيه أركِّز المركع في مكانه، وتلك اللحظة التي قلب فيها حياتي رأسًا على عقب. كما أنّي تذكّرت أيضًا تلك الليلة التي تقدَّم منّي فيها واستوقفني.

فبعد ما تحدَّثنا معًا طيلة فترة ما بعد الظهر، طلبت إلى السيِّدة صديقتي أن تعود في ذاك المساء لتنضمّ إلى تجمُّع لطلاّبي الجامعيِّين. أتت بكلّ سرور، وبكلّ سرور أيضًا خبرت تأثيرها على طلاّبي. وطلبت إليها فكلّمتهم عن المشاركة في اجتماعات الصلاة، ودعتنا جميعًا إلى اختبارها. ولو لم تفعل لبدا ذلك وكأنّه إضاعة لمناسبة جميلة. فاغمض الجميع عيونهم، وأحنوا رؤوسهم، وراحوا يصلّون. وكنّا نُناجي الله بصوت عال فيصغي كلّ إلى حديث الآخرين معه. كانت تلك محاولتي الأولى ولم أكن مرتاحًا، وكان في نفسي بعض الصدأ.

في نهاية السهرة، قال لي أحد الطلاّب المشاركين: «أتعرف ما كنّا نعمل؟ كنّا جميعًا نمثِّل، وحدها تلك السيِّدة كانت صادقة، إنّها في

الحقيقة تعرف المسيح، أليس كذلك؟».

«نعم» أجبته، «وهل تعلم أنّها لم تتعرَّف إليه إلاّ حديثًا؟»

«ماذا؟!»

ربيع لنفسي

في الأيّام التالية، بدأت أُصلّي بعمق جديد. من الصباح الباكر هبوط الظلام، موعد نومي. كنت أدعو المسيح إلى بيتي، إلى كلّ غرفة منه. ورحت أؤكِّد له أنّني على استعداد أن أقرّ بإفلاسي، بعدم قدرتي على توجيه حياتي، وعلى اكتشاف الفرح والسلام لوحدي. وكنت أدعو الروح دائمًا كي يهدم الجوار من حولي ويحطِّم السياجات التي أمضيت سنين في بنائها. سألته أن يحرِّرني من عادة المنافسة التي تتملَّكني، ويشفيني من الجوع الدائم إلى النجاح ومن حبّ رائحة البخّور وعطور التبجيل.

ما بدأ يحدث في حياتي فجأة آنذاك يمكن مقارنته فقط بزمن الربيع. أحسست وكأنّني أمر في ظلمة شتاء طويل قارس. فقلبي وروحي عاشا قحط

الطبيعة وعريها في فصل الشتاء. أمّا الآن، وفي زمن ربيعي هذا، فأشعر أنّ الحياة تدبّ في عروق نفسي، والدم يتدفّق فيَّ من جديد، وجمال الازدهار عاد يبهج عالمي.

مرّة جديدة شعرت وكأنّني وضعت على عيني نظّارات جديدة، فانجلت أمامي أمور متعدّدة كان يلفّها الغموض. فمن دون إيمان حيّ يبدو العالم غريبًا مخيفًا، وحياة الإنسان فيه تتحوّل إلى مبارزة شاقّة يصمد فيها الأقوى. ومن خلال الرؤيا الإيمانيّة يظهر العالم دافئًا ومحبًّا. إنّه عالم الله، يتحوّل فيه البشر من أناس يهدّد أحدهم الآخر إلى أخوة وأخوات لهم أب واحد هو الله وأخ مشترك هو المسيح.

أترى الذي يجول في نفسي نفحة من عند الله، أم هو تطوّر يشرحه علم النفس كحدث طبيعيّ؟ في اعتقادي أنّ حقيقة النعمة من لدن الله، وخبرته اللقاء به تمتحن في ثلاث:

١ ـ إمتحان الوقت

الإنسان، قبل أن يستوقفه الله يكون شيئًا، وبعد ذلك يصبح كائنًا آخر. حتّى عندما لا يكون التغيير

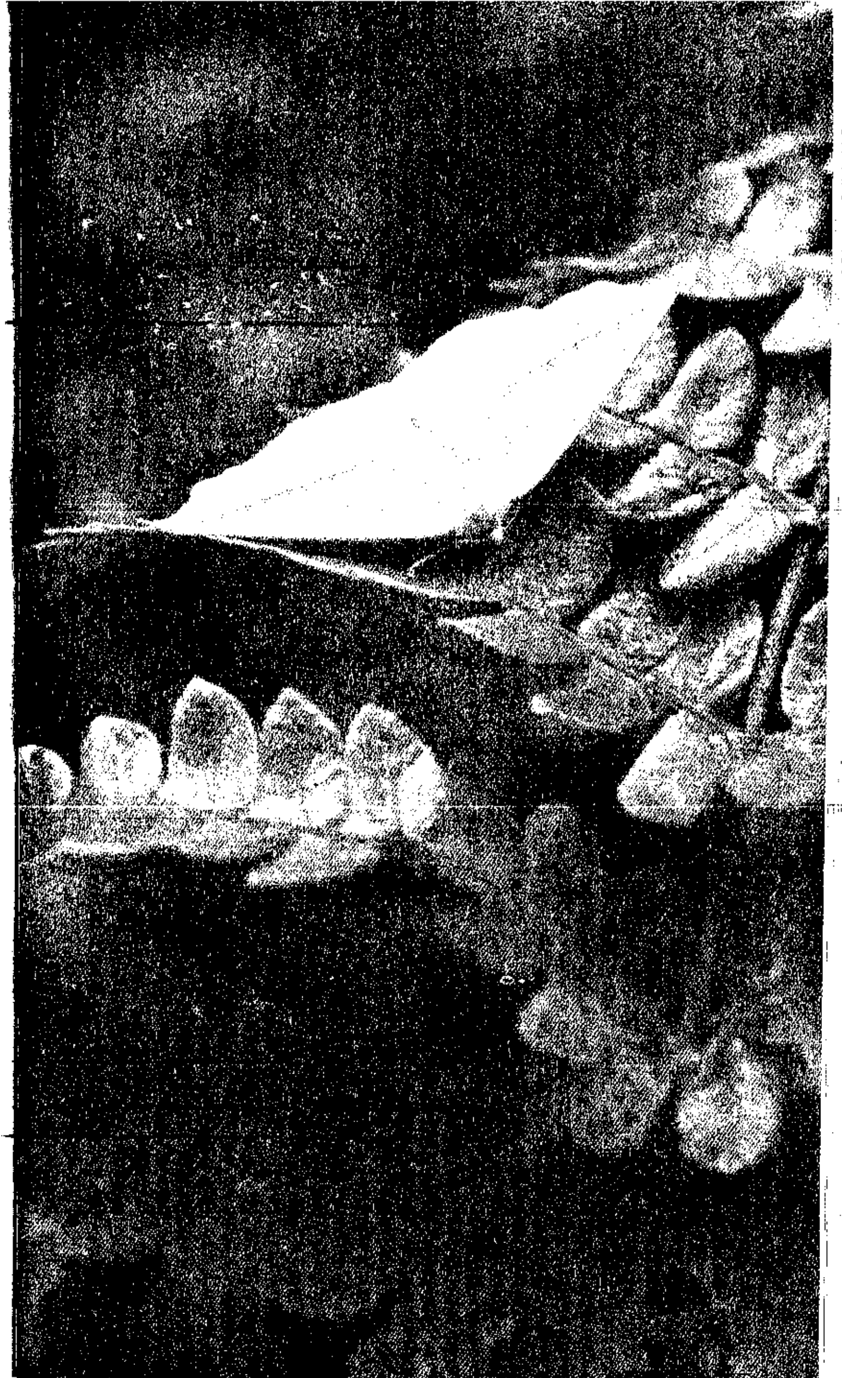

دراماتيكيًّا، فاختبار حضور الله يترك دائمًا أثرًا لا يمحى. إنّ العواطف الهيّاجة وإيحاءآت اللاوعي تجيء وتمضي. أمّا «زمن الربّ» فثابت أبدًا.

٢ ـ إمتحان الواقع

الإنسان الذي استوقفه الله حقًّا لا ينسحب من الواقع ليعيش في برج عاجيّ وينعم وحده بحضور الله فيه. بل إنّه يتعمّق في وعيه للمحيط من حوله، فيرى بعينيه الجديدتَين جمال العالم، وينصت بشغف إلى موسيقاه وشعره فيكتشف الجمال من حوله أكثر فأكثر. ولكنّه يجد نفسه أيضًا على صلة أعمق مع الحزن في قلوب الناس. ويحسّ في نفسه بوعي جديد للواقع الذي يعيش، أنّه يختبر نوعًا جديدًا من الحيويّة. لقد قال القدّيس أيريناوس في الجبل الثاني: «إنّ مجد الله يتجلّى في الإنسان الذي يعيش الحياة بملئها». فإذا ما استوقف الله إنسانًا، لا بدّ لذلك الإنسان من أن ينتقض ويقول «نعم للحياة» من جديد.

٣ ـ إمتحان المحبّة

الإنسان الذي انفتح على الله يتحوّل، بفضل ذلك، أكثر فأكثر، إلى ما يشبه الله. أن يصبح أكثر

حقًّا. فيوحنّا يقول: «الله محبّة»... وكلّ محبّ مولود من الله وعارف بالله... مَن أقام في المحبّة أقام في الله، وأقام الله فيه». فأعظم خلق الله وأروع عجائبه يبقى دائمًا الإنسان المحبّ، الكائن الذي تحوّل من إنسان يأخذ إلى إنسان يعطي. ذاك هو جوهر وجود الله في الإنسان، وذاك هو عمل الله. فموهبة الحبّ هي أعظم مواهب الروح.

إنّ خبراتي الجديدة مع الله خلال السنوات الأخيرة، كخبرتي الأولى في سني «الابتداء»، قد عبرت كلّها الامتحانات الثلاثة. إنّي أشعر بسلام داخلي وأصبحت على يقين بأنّ تلك الخبرات كانت من الله.

إمتحان الوقت. لقد انقضت سبع سنوات على شفاء تلك السيّدة التي كانت تعاني من القلق النفسيّ العميق وعودتها إليّ، لتصبح العامل الأساسيّ في شفائي أنا. فحقيقة خبراتي في «ربيعي الثاني» لم تتبدّد كما العواطف السطحيّة التي قد ترتفع بالمرء إلى حين ولكنّها ما تلبث أن تتبدّد وكأنّ شيئًا لم يكن. فعمل الله في حياتي خلق لديّ شعورًا بالحبّ، فكأنّها قوّة كهربائيّة جديدة مرّت في عروقي، مع أنّ بعض عظاتها المنيرة كانت تشعّ في سماء نفسي الملبّدة من قبل وكانت آثار لمعانها تبقى في كلّ مرّة،

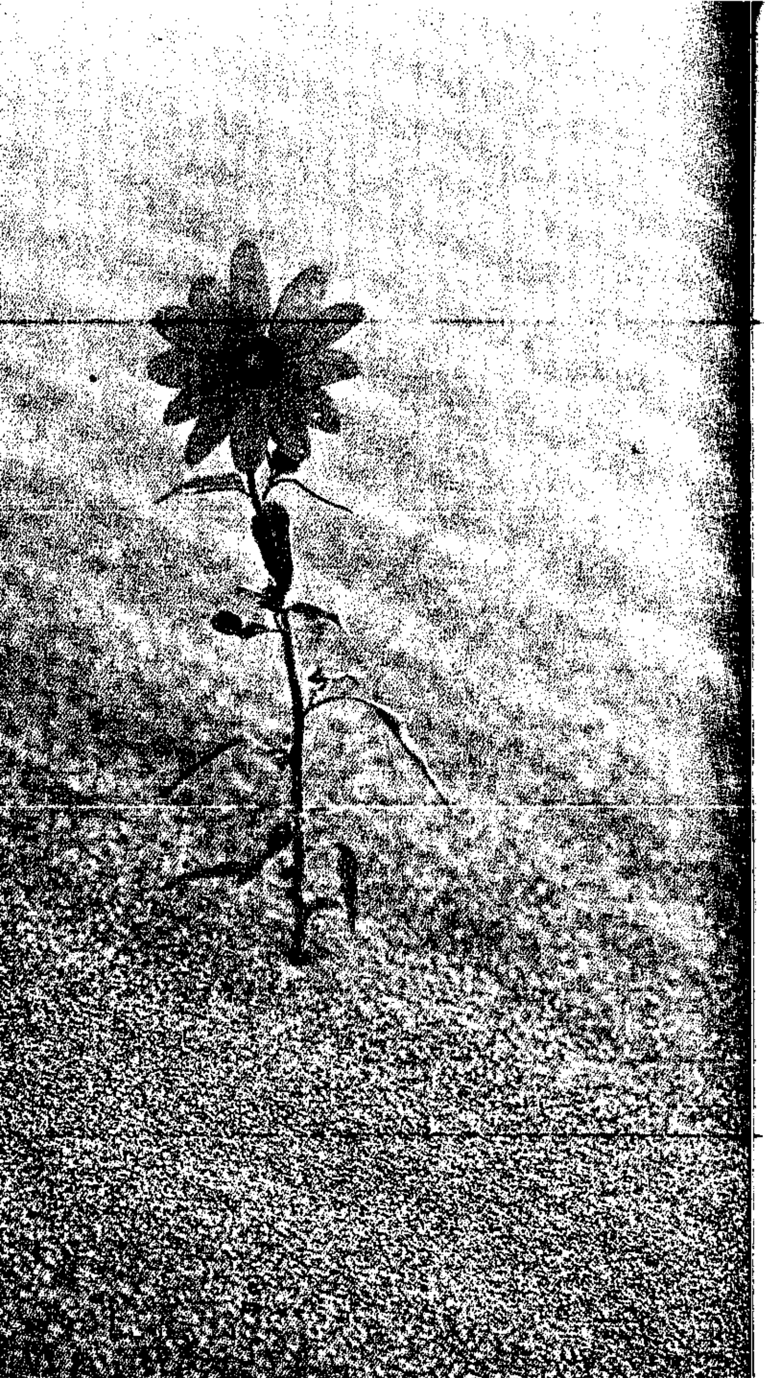

تنشر البهجة في نفسي. في النهاية، الشخص الذي خبر الله يبقى أفضل حكم في صدق خبرته وعمقها. وربّما كان الحكم الأوحد في ذلك. أنا أعرف كلّ الرغبات المكبوتة في اللاوعي عندي، وكلّ التمنّيّات، وأعي كذلك قوّة الوحي الذاتيّ. ولكنّي على يقين أيضًا أنّ الله قد استوقفني وهو يحبّني. في موضوع الإيمان هذا، الله هو الذي يأخذ المبادرة وهو الذي يبقيها مضطرمة، ونحن نتحرّك على وقع نعمته، ويلتقينا حيث يشاء وساعة يشاء.

إمتحان الواقع. وجدت نفسي نتيجة لتلك الخبرات التي تكلّمت عنها، في صلة عميقة المعنى مع العالم من حولي.وقد أعاد ذلك إلى ذهني قول لداغ همرشولد Dag Hammarskjöld... «أوّل يوم آمنت فيه، فهمت العالم للمرّة الأولى والحياة أصبح لها معنى». قرأت مرّة أنّ غالبيّة اللاهوتيّين يعتقدون أنّ العقبة الكبرى في وجه حياة الإيمان هي «قلّة الانتباه». العالم مليء بحضور الله وعظمته ولكن الإنسان لا يبصر. نحن منشغلون جدًّا بأنفسنا، ونبالغ في اهتمامنا بحاجاتنا وفي إشباع رغباتنا. أنا أشعر كلّ يوم أنّ الله ينقلني من عزلتي ووحدتي في عالم يسكنه شخص واحد،ليدخلني بعمق،أكثر فأكثر، في مآسي الناس حيث أجدّد في قلبي وعلى شفتيّ التزامي بالحياة.

إمتحان المحبّة. لقد كتبت مواعظ عديدة عن المحبّة وتكلّمت فيها مرارًا، وطالما أجبت عن الأسئلة في الموضوع بسهولة فائقة. ولكن كلامي كان دائمًا نظريًّا، وكانت المسافة بين قولي وفعلي مؤلمة. فأخذت مطالب الناس تزعجني جدًّا، وأحسست بنزف كبير في قواي، وتقلّصت المساحة الخاصّة من حولي. أذكر كيف أنّي كنت أحدّق في الهاتف وكأنّه آلة عذاب. فرنينه لا يتوقّف والكلّ كان يهتف ليطلب إليّ أمرًا ما. فشعرت بوحدة مخيفة تدبّ في نفسي، وبشيء من الحقد أيضًا على الكهنة الآخرين. وكنت أتساءل عمّا يفعلون. أتراني المخلّص الوحيد في هذه البقعة من الأرض؟

ولكن المشكلة يا عزيزي بروتس لا تكمن في نجومنا، ولا هي في مطالب الناس التي لا تنتهي. المشكلة الحقيقيّة في داخلنا. فالسؤال الأساسيّ يبقى: «أتريد حقًّا أن تحبّ؟ وهل تقبل أن تكون «منفعة عامّة»، مضخّة الماء العموميّة التي وضعت ليستعملها الجميع بحرّيّة؟ أتريد حقًّا أن تدع المسيح يتجسّد من جديد في «إنسانيّتك»؟ المسيح هو «الشخص الذي تخلّى عن ذاته في سبيل الآخرين». فإذا وهبته ذاتك فهو سيضعك حالاً في خدمة الآخرين، بشكل أو بآخر. فهل تريد حقًّا أنْ تجنّد

نفسك لحياة الحبّ هذه؟ ليس باستطاعتك أن تحقّق ذلك وحدك، بل عليه هو أن يحقّق ذلك فيك. فهلاّ تمكّن إيمانك من أن يطلق قوّة الله في حياتك»؟ تلك هي الأسئلة التي تتّصل بالموضوع حقًّا.

أنا الآن على يقين، أكثر من أيّ وقت مضى، أنّ قوّة الحبّ تأتي من الله. فلا أحد يمكنه أن يحبّ إلاّ إذا كان الله يعمل فيه. وإنّي أسمع المسيح يقول: «أنتم لا تستطيعون أن تثمروا إن لم تثبتوا فيّ... أنا الكرمة وأنتم الأغصان... فإنّكم، بمعزل عنّي، لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا». وأسمع القدّيس يوحنّا يقول أيضًا أنّ مَن يعرف الحبّ هو وحده يعرف الله. والقدّيس بولس يصف بدوره الحبّ كأرفع وأعظم هبات الروح. وأينما وجدت الحبّ وجدت الله. وجدته يعمل في عقول الناس وقلوبهم ومن خلال سواعدهم.

خبرتي مع الله هي التي أحدثت هذا التغيير فيّ أنا أيضًا. وأنا لا أزال إنسانًا أنانيًّا جدًّا، فالله لم ينتهِ بعد من العمل فيّ. قد لا يرى الآخرون فيّ أثر إختباري لله، ولكنّهم لو عرفوني قبل ذلك، لقدّروا الفرق بين ما كنت عليه من قبل وما صرت إليه الآن. والمسيرة نحو الألوهة، التي يحقّقها الله فينا، فيجعلنا أكثر فأكثر على صورته ومثاله، هي مسيرة بطيئة،

تدريجيّة وفي الغالب مؤلمة. أنا لا أزال رحالة، ولكن الله قد استوقفني وبدّل فيَّ بعض الشيء. هذا أساس رجائي. والله الذي استوقفني في الأمس سيتابع العمل في حياتي، وسأواكب هذا العمل دائمًا، وسوف يكون حضوره فيَّ أعمق.

صلاتي: حديث مع اللّٰه

إلى أين وصل بي كلّ ذلك؟ وإلى أين قادني الله من خلال تلك التعرّجات؟

أنا الآن أفهم الصلاة بل أُمارسها كلقاء حميم في علاقة حبّ، أخاطبه بصدق وأستمع إليه بثقة. الصدق في مخاطبة الله هو بدء الصلاة؛ هذا يضعني أمام الله، حيث يجب أن أكون. أنا أعتقد أنّ العطاء الأساسيّ في الحبّ هو العطاء من الذات في الانفتاح على الآخر - ولا عطاء حقيقيًّا من دون هذا الانفتاح. فالعلاقة الحقيقيّة مع الآخر تبدأ في اللحظة التي نقرّر فيها أن نضع ذواتنا الحقيقيّة أمام الآخر، لكي يرفضها أو يقبلها، كما تكون، في مختلف أحوالها والظروف. نحن لا نبدأ في عمليّة الحبّ إلاّ عندما نبدأ في الانفتاح بصدق على الآخر. لأنّ الحبّ عطاء من «الذات» لا ممَّا عندنا. ما دمت أعطي فقط

ممَّا أملك فعطائي ناقص، بل هو شبه عطاء، ولن يكتمل حقًّا إلاّ عندما أعطي من ذاتي في انفتاح صادق.

تبنى العلاقة مع الله كما تبنى كلّ علاقة شخصيّة؛ أقبل أن أقول له في الحقيقة مَن أنا. لا يمكنني أن أضع ذاتي بين يديه وأنتظر منه أن يقبلني أو يرفضني، أن يحبّني أو يعرض عنّي قبل أن أقول له مَن أنا. فقاعدة مارتن لوثر Martin Luther الأولى في الصلاة هي: «لا تكذب على الله». عندما أحاور الله في الصلاة، يجب أن أُلقي بذاتي أمامه بكلّ حقيقتها. عليَّ أن أبوح له بعمق مشاعري، وأفكاري، ورغباتي، مهما كانت طبيعتها. قد لا تكون كما أريدها، ولكنّها تبقى مشاعري أنا وأفكاري ورغباتي أنا، مع كلّ ما فيها من صواب أو خطأ.

عندما بدأت أُصلّي هكذا إلى الله، طارحًا أمامه مشاعري بعري حقيقتها، عرفت آنذاك لماذا قادني الله إلى الاشتراك في تلك الحلقات حول الاتّصال بالذات التي أشرت إليها سابقًا. عرفت لماذا علّمني كيف أُواكب مشاعري المتغيّرة ورغباتي المتبدّلة. وكيف مكّنني من أن أبوح بها للآخرين. لقد أفادني ذلك في مجالات متعدّدة ، ولكنّه مكّنني ، بنوع

أخصّ، من أن أُخاطب إلهي بصدق. لقد حرَّرني من كذب تلك الصِيَغ المتبذِّلة، المحضَّرة مسبقًا، التي تخنق التحدُّث الشخصيّ إلى الله في الصلاة. لقد أطلعته على حقيقة موقعي منه، وأخبرته عن إيماني أحيانًا وعن قلّة إيماني أحيانًا أُخرى، عن قنوطي في الاستجابة لدعوته، عن امتعاضي ضدّ استعمال الآخرين لي «كمنفعة عامّة»، وكخادم عليه كلّ الواجبات وليس له أيّة حقوق. كما أنّي أفرغت أمامه كلّ عواطفي النابضة، مدليًا بحقيقتي دائمًا دون الادّعاء أبدًا أنّي على حقّ.

لقد تصرَّفت أحيانًا كأيّوب في العهد القديم، يلعن اليوم الذي فيه خلق. وكالنبيّ إرميا يتّهم الله أنّه جعل منه بدل النبيّ مجنونًا. وكالملك داود أحيانًا أُخرى، أنشدُ عطفه ومغفرته، تلك التي كانت دائمًا بي أمسُّ الحاجة إليها وأنا على درب مسيرتي.

إنّ في الصراحة الكلّيّة مع الله قوّة شفاء خاصّة. لقد تكلّم عالِم النفس يونغ Jung عن الاضطراب العصبيّ وكأنّه انقسام داخل الذات، حرب في الداخل، حدوث تفتُّت وتشرذم. والقدّيس بولس قال: «إنّي أشعر في أعضائي بشريعة أخرى تحارب شريعة عقلي». إنّنا نجابه المشكلة الحقيقيّة عندما نبدأ نتساءَل هل نقبل واقعنا البشريّ هذا، على ضعفه.

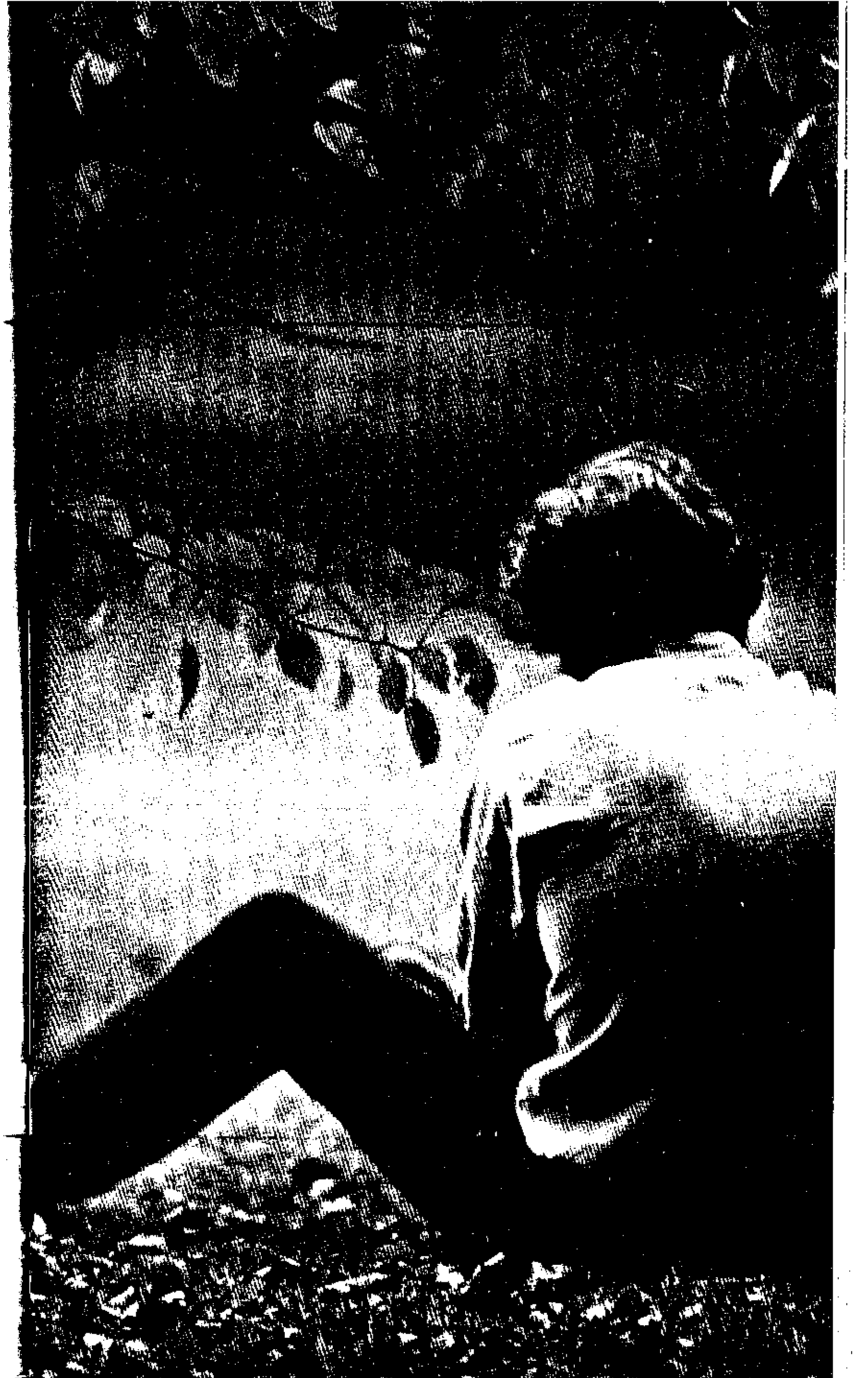

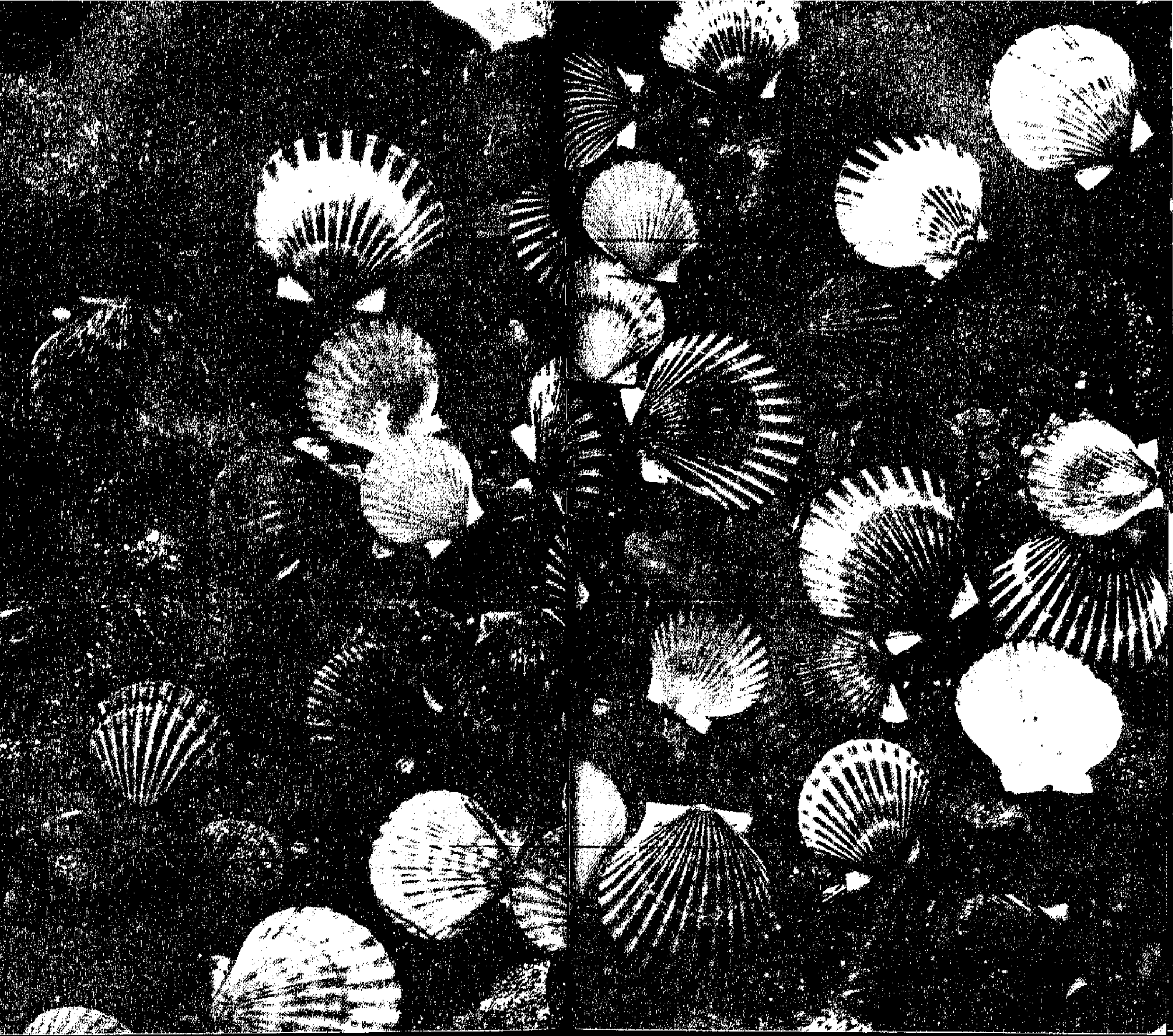

وهل نشعر بارتياح ونحن بشر غامضون، يختلط الشرّ فينا دائمًا بشيء من الخير، والخير فينا تلوّثه دائمًا بعض شوائب الشرّ؟

إنّني متأكِّد أنّ ارتياحي في واقعي البشريّ هذا رهن بقبول الله لي كما أنا. كما أنّي أشعر أنّ قيمتي الحقيقيّة هي قيمتي في عين الله، وكلّ ما دون ذلك زائف لا حقيقة فيه. عليَّ إذًا أن أكون ذاتي مع الله، لأنّ سوى ذلك لا منفعة فيه. كما عليَّ أن أقف موقفًا يثق بعظمته وتفهّمه. ذاك هو الأساس وهو كذلك بداية كلّ صلاة.

الإصغاء إلى الله

إذا لم تكن مخاطبة الله في الصلاة أمرًا سهلاً، فخبرتي تدلّني على أنّ الإصغاء إليه في حوار الصلاة أصعب. كيف يتّصل بي الله ليظهر لي ذاته؟ كيف يكشف لي عن ذاته بعد أن أكون خاطبته بصدق عن ذاتي؟ هل عليَّ أن أنتظر ساعات، وأيّامًا، بل أسابيع وسنوات، لأسمع الجواب من الله عن انفتاحي عليه؟ أم أنّ هنالك جوابًا سريعًا ومباشرًا؟ نعم أعتقد أنّ جواب الله يأتي سريعًا ومباشرًا.

أطرح على نفسي أسئلة كهذه: هل باستطاعة الله

أن يوحي لعقلي بفكرة جديدة وبشكل آليّ؟ وهل بإمكانه أن يخلق فيَّ نظرة جديدة إلى الحياة، فأراها كما هي، بفشلها ونجاحها، بآلامها وبهجتها؟ وهل يقدر أن يضع رغبات جديدة في قلبي وقوّة جديدة في إرادتي؟ وهل يمكنه أن يلمس عواطفي فيهدّئها؟ ويهمس في أذني عبارات تنفذ إلى نفسي وتملأ مخيِّلَتي؟ وأخيرًا هل يقدر الله أن يحيي ذكريات تكدَّست في عقلي ويعيدها إلى ذهني في لحظة حاجتي إليها؟

كلّ هذه الأسئلة تبدو خطيرة لي. فإذا كان الجواب عنها بالإيجاب، فذلك يعني أنّ لله، أقلّه، منافذ خمسة، يدخل من خلالها إليَّ، فيستوقفني في الحال. إذا كانت الأجوبة عن تلك الأسئلة بالإيجاب، فطريقتي في الصلاة ناجعة. وإذا كانت الإجابة سلبًا، فأقرّ آنذاك أنّي على خطأ، وأنّ ليس لديَّ ما أقدِّمه لكم.

إنّي متأكِّد أنّ الله يتَّصل بنا من خلال تلك المنافذ. أفكِّر في الكتاب المقدَّس، كيف أنّه يُشكّل بكامله سجلاً لمثل تلك الخبرات الروحيّة، وكيف أنّ الله يدخل تاريخ البشريّة بقوّة ليستوقف الناس ويتكلّم إليهم. أنا أؤمن أيضًا أنّ الإله نفسه حاضر ويتوق أن يتكلَّم إليك وإليّ. تمامًا كما تشوق إلى الكلام مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وأشعيا وإرميا.

إنّه تكلَّم إلى العديد من قَبلنا، وإيحاءاته أثمرت في العديد من الناس حياة جميلة وأعمالاً كبيرة. أنا كنت دائمًا على يقين أنّ الله هو الذي استوقف بولس على طريق دمشق، وتتبّع أوغسطينوس المتردِّد حتَّى أعماق ضعفه، وأوحى إلى إغناطيوس دي لويولا أن يدع السيف جانبًا ويتحوَّل إلى مناضل في سبيل ملكوت الله. نعم، بالتأكيد، إنّ الله هو الذي صنع كلّ تلك الآيات في أولئك البشر العظام.

ولكن، أتراه يأتي إليَّ؟ كان من الصعب عليَّ أن أفهم ذلك إلى أن توقَّفت عن طرح السؤال الخطأ، وبدأت أطرح السؤال الحقيقيّ. كنت دائمًا أسأل: مَن أنا، يا إلهي، حتَّى تأتي إليّ بعطف ومودَّة؟ من أين لي أن أرتدي هذه الأهمِّيَّة بالنسبة إليك؟ ماذا تراني أستطيع أن أقدِّم لك؟ كنت مقيَّدًا في اهتمامي بنفسي. والسؤال الحقيقيّ هو بالطبع: مَن أنتَ يا إلهي؟ سبحانك، تأتي إليَّ وتكلِّمني، وتُفعِم قلبي وعقلي بأفكارك، وتمكِّنني من رؤية العالم من خلال عينيك، وتملأ ضعف إرادتي بقوّتك ورغباتك، وتفيض في هذا الإناء الخزفيّ نعمتك؟ سبحانك ربّي، تتقبَّل من يدي الخبز والسمك تسدّ به عَوَز الجائعين في العالم كلّه . مَن أنتَ يا إلهي؟ أرني وجهك، خذني أنا وحياتي كلّها بين يديك،

فتضطرم نارك فيَّ وتلاطف لمساتك المهدئة وجه روحي العطشى.

أُصلِّي إلى الله، أبوح له بسرّ هويَّتي، وأُصغي إليه يبوح لي، ليس فقط بحقيقته، بل بحقيقتي أنا أيضًا، بمعنى حياتي ومعنى العالم من حولي. أنا أصغي إليه، وفي صمتي أحمل إليه قدرات الإدراك الخمس التي من خلالها يأتي إليّ.

قدرات إصغائي الخمس

عقلي

بعد أن أقف بذاتي أمام الله، يأتي إليَّ بعينَين لأرى كلّ شيء من خلال عينيه ونظرته الإلهيَّة إلى الأمور، يرسِّخ تلك النظرة في عقلي ويملأني من أفكاره. يوسِّع رؤياي ويجعلني أدرك ما هو مهمّ في الحياة، أفرّق بين ما هو تافه في عينيه وما هو كبير. أنا كنت دائمًا أحدِّد **الوهم** بأنَّه ارتباك بين المهمّ والتافه في الحياة. تتوتَّر أعصابي وتكبر الأمور في عيني من غير قياس، خاصَّة عندما يتهدَّد أحد «كياني»، يتهدَّد «الأنا» فيَّ. أروح آنذاك أشنّ الحرب حيث أناس مسالمون، وأنازع في أمور ليست بموضوع نزاع. وأخبره بذلك. فيأتي، وبلمسة عطف ، يملأ عقلي

من فكره ورؤياه، فتتبدَّد الأوهام كلّها.

إرادتي

لقد اكتشفت، خلال السنوات الأربعين الماضية، أمرًا واحدًا عن نفسي وهو أنّي ضعيف. أقول هذا دون ادِّعاء ولا رياء، ولا تواضع زائف. أنا في الواقع إنسان ضعيف فيَّ حاجة إلى مَن يفتديني. في زمن حماسي، بعد أن دخلت المدرسة الإكليريكيَّة، اعتدت أن أقدِّم لله نهاري ساعة أستفيق من نومي. كنت أَعده بيوم «لا نقص فيه» بيوم كامل في الحبّ والخدمة. وفي صلاتي المسائيَّة كنت أُقدِّم له ندامتي. وقد طال بي الزمن قبل أن يخفّ اتِّكالي على قدرتي وتقوى به ثقتي فألقي حياتي بين يديه.

لمَّا تجرَّأت على الإقرار بحقيقة ضعفي، آنذاك فقط بدأ الله يحوِّلني إلى شخص يتمتَّع بقوَّة خاصّة. في ضعفي تظهر قوَّته. وقد دفع بي إلى قبول تحدِّي التلمذة المكلف. كما أنّه أتى إليَّ في الصلاة يملأ إرادتي برغبات جديدة. من المهمّ جدًّا، نفسيًّا وروحيًّا، أن تكون لدى الإنسان رغبات واضحة. فما من إنجاز في التاريخ، رأى النور إلاَّ من خلال رغبة واضحة في قلب إنسان شجاع.

يأتي إليَّ في أوقات صلاتي وأنا أنصت إليه ،

فتندفع قوّته فيَّ، وتتعمّق الرغبة عندي في الانتماء إليه، في أن أكون «منفعة عامّة»، «مضخّة ماء» لخدمة الملكوت، تمامًا كما المسيح أيّام حلّ في ما بيننا.

عواطفي

عندما أكون في نقمة عاطفيّة، لا عزيمة عندي، وعندما أشعر بألم الوحدة المضني، وأحسّ بالانتقاد والفشل يحملان الحزن إلى نفسي، آنذاك يأتي حاملاً إليّ عونه ومواساته. وكأنّ قوّته الشفائيّة لمست عمق تعاستي. فإذا كان بوسعه أن يُطهِّر الأبرص فهو قدير، ولا شكّ، أن يحمل السلام إلى قلب بائس يائس. وكم من مرّة وجدت نفسي متوسّلاً إليه علّه يرفع فوق رأسي تلك اليد التي رفعها فوق بحيرة جناسرت، فيهدّئ روعي كما سكّن هيجان العاصفة آنذاك. ولكنّني على يقين أيضًا أنّ الله لا يأتي فقط ليحمل السلام إلى المتعبين وإنّما ليحمل القلق أيضًا إلى أولئك الذين استراحوا في ذواتهم وتمادوا.

ويأتي أحيانًا، لا يزعجني، بل ليعيد ترتيب القِيَم عندي، أو ينبّهني إلى حاجة أخ أو أخت إليّ؛ وفي كلّ مرّة يأتي، يتحدّى في مجيئه القدرة عندي على النموّ. وما من مرّة سألته حياة هادئة لا متاعب فيها.

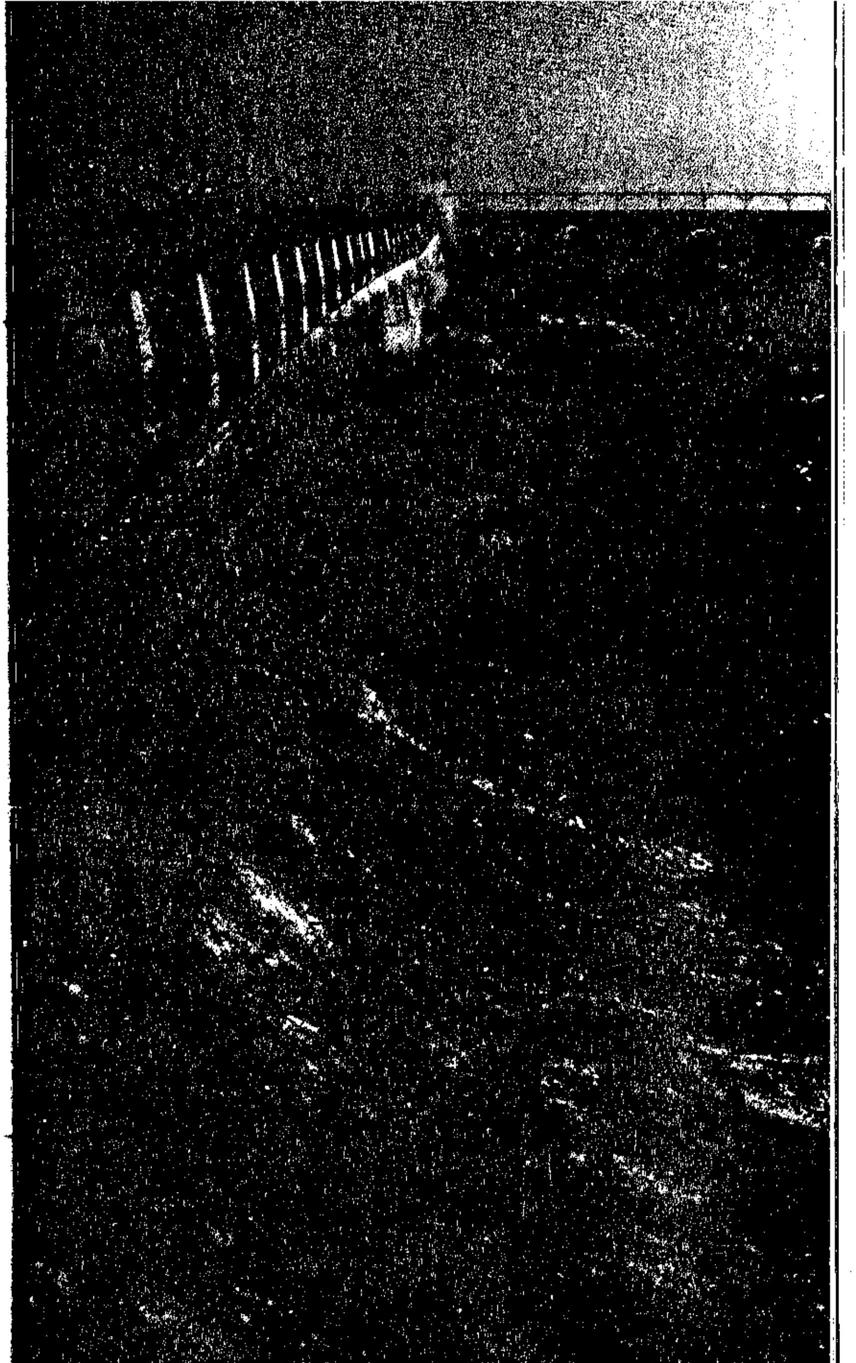

فجلّ ما أسأله دائمًا سلامًا يفرّق بين التافه والمهمّ، وصحوة أتذكّر فيها دائمًا أنّه أحبّني ودعاني إلى أن أحبّ.

مخيّلتي

الناس الذين يؤمنون بأنّ الله يستطيع الدخول إلى عقولهم بأفكاره وتوجّهاته، وإلى إرادتهم بقوّته ورغباته، وإلى عواطفهم بسلامه، يتردّدون فجأة أمام فكرة تحريك الله لمخيّلتهم، فيسمعون في داخلهم كلامًا ويرون رؤى. لقد أخبرتني أمّي يومًا، وكأنّها تبوح لي بسرّ، أنّ الله كلّمها مرارًا وأعطاها توجيهات دقيقة لحياتها. وقالت: «لن أبوح بذلك إلى أحد سواك مخافة أن يظنّ الآخرون أنّي أصبت بشيء من الجنون». وأذكر أنّي طمأنتها أنّ ذلك أصبح تقليدًا في العائلة، لأنّه حدث لي أنا أيضًا أن أحسست بيد الله في داخلي، كما وشعرت مرارًا أنّه يغذّي مخيّلتي بلمساته اللطيفة.

تلك كانت مشكلة جان دارك والأصوات التي كانت تسمعها. وهذا ما لفت إليه جورج برنارد شو في روايته «القدّيسة جان»:

روبرت : ماذا تعني؟ أصوات؟

جان : أنا أسمع أصواتًا تقول لي ما يجب أن أفعل. إنّها تأتي من الله.

روبرت : إنّها تأتي من مخيّلتك.

جان : بالطبع، هكذا رسائل الله تأتي إلينا.

وإذا كان من الصعب أحيانًا أن نفرّق بين إيحاءات نعمة الله وما نولد نحن في ذواتنا، فليس ذلك بالسبب الكافي لكي ننكر عمل الله في مخيّلتنا. فالله يتّصل بنا بواسطة قوّة مخيّلتنا.

أذكر أنّي سألت الله مرّة ما الذي يريد أن يقوله لي أو يطلبه منّي. كان ذلك في لحظة حماس داخليّ وقد أحسست أنّني على استعداد لسماع كلمة من لدنه. في سكون إصغائي سمعته يقول: «إنّي أحبّك». أعرف ذلك، قلت في نفسي، وفجأة بدا لي واضحًا أنّني، في الحقيقة، ما تقبّلت ذلك في العمق، وأنّ تلك الحقيقة لم تترسّخ في داخلي وأنّ فيّ حاجة إلى سماعها. وفي لحظة النعمة تلك، أدركت حقًّا ما كنت أعرفه وهو أنّ الله كان دائمًا صبورًا عليّ وغفورًا، من دون أن أكون قد رأيت حبّه في ذلك... عندما يتكلّم الله إلينا، نشعر دائمًا بشيء من المفاجأة. وحقيقته تتضّح لنا وتترسّخ فينا.

إنّ القناة الأخيرة، أو اللاقط الأخير لإيحاءات الله إلينا هي الذاكرة. لقد قيل إنّ الحبّ مزيج من الذاكرة والحدس. ولقد لاحظنا أنّ الخطأ الوحيد الذي يرتكبه الإنسان هو الخطأ الذي لا يتعلَّم منه شيئًا. عندما يتحدَّث الله إلينا من خلال بعض مخزون ذاكرتنا، يمكنه أن يحرِّك الحبّ فينا من خلال ذكريات ومواقف عطف منه علينا في الماضي، نافخًا فينا عزمًا جديدًا على مواجهة المستقبل. وقد يذكِّرنا بالماضي أيضًا ليوفِّر علينا ألم السقوط في الخطأ نفسه من جديد. أنا أشعر أنّ أساس إيماني بالله وإحساسي بعرفان الجميل له هما نتيجة لذكريات محبّته لي، ولتاريخ «حضوره فيَّ ولمساته لروحي». «كلّ ما أطلب هو أن تتذكّر دائمًا أنّي أحبّك».

الحاجة إلى صلاة ـ حوار مع اللّه

من خلال تلك القدرات التي ذكرت، يمكننا دائمًا أن نعيش خبرة علاقة مباشرة مع الله، نخاطبه ونصغي إليه. وما من شكّ في أنّ الإصغاء إلى الله بتبصُّر ودقّة لأمر صعب. أنا لا أزال أختبر ذلك. ولكنّي أعرف كم هي وافرة مجالات اللقاء بالله لمَن

يعرف حقًّا كيف يصغي. وإنّني على يقين أنّنا عندما نتعلَّم كيف نجلس بهدوء مع الله، ونستريح في حضوره المحبّ، يقول لنا بطريقة وبأخرى، مَن هو، ومَن نحن، وما نحن مدعوون إليه، وما الموقف الذي ينتظره منّا نحوه ونحو بعضنا بعضاً.

هنالك أنواع أخرى من الصلاة، متعدِّدة تَعدُّد خبرات الناس. هنالك الصلاة التي ترى الله في الجمال، وتنصت إليه في الموسيقى والإيقاع، وتحسّ به في العلاقات الإنسانيّة. وهنالك صلاة التأمُّل وصلاة الصمت. ولكن الصلاة التي يتحدَّث فيها الإنسان مع الله، صلاة الانفتاح المتبادل، هي بالنسبة إليَّ المرتكز الأهمّ في حياتي. أجده في الطبيعة، وفيها أعبده. ألتقيه في الشعر والموسيقى، وفي إخوتي وأخواتي، وفي البرق والرعد أحسّ بوجوده. أشعر به في عزلتي وفي خضمّ ساحات مدينتي ألتقيه. ولكنّي أرى أنّني لو لم ألتقه في «الصلاة ـ الحوار»، لَمَا أحسست بوجوده في تلك الأماكن كلّها. ولا سيَّما في نسيمات الروح التي تمرّ في سمائي وتكاد تختفي على كلّ أحد.

ليس فينا حاجة إلى وصف لاهوتيّ دقيق يصوِّر لنا الله، لكي نبدأ الحوار معه. ولو كانت تلك هي الحال لَمَا تمكَّن أحد من البدء بذلك الحوار. أن

نتعرّف إلى الله فتلك مسيرة في الحوار. نبدأ بأفكار غامضة، وأفكار مشوّهة ومخاوف لا أساس لها، نتوّجها كلّها بأحكامنا الشخصيّة المسبقة. ولكن، بشكل تدريجيّ، نظهر له ذواتنا، ويظهر لنا ذاته، فنروح نصحّح أفكارنا المخطئة وننفذ إلى حقيقته من جديد. نختبر مظاهر جديدة من سرّه، وهو الإله العطوف الذي لا ينسى أحدًا، حتّى لو نسيت الأمّ طفلها، ثمرة أحشائها. أن نكون قد أخطأنا في نظرتنا إلى الله، فذلك يعني أنّنا لم ننجح في مخاطبته. ولكنّ المثابرة على مثل هذه الصلاة هي التي تظهر لنا شيئًا فشيئًا حقيقة وجهه، إلى إن يأتي يوم «فيه أعرفه مثلما أنا أعرف».

أهمّ ما كان فيَّ من حاجة لكي أبلغ هذه اللحظة من حياتي، هو اليقين بأنّ الله يريد حقًّا أن يكون بقربي. كانت فيَّ حاجة إلى أن أتخلّص من نظرتي إلى الإله البعيد اللامبالي، الغريب عنّي وعن قدراتي كلّها. وفوق كلّ شيء كانت فيَّ حاجة إلى النجاح في صلاتي هذه. كان من الضروريّ أن أشعر بلَمسة يد الله، أن أختبر أفكاره تمتدّ إلى عقلي، وصلابة قوّته ورغباته تسيطر على إرادتي. وأن أسمع صوته وأرى في ظلمة ليلي ثورة، وأنعم بسلامه في لحظات قلقي. فقط آنذاك، وفي تعرّجات رحمة الله، الإله الحاضر،

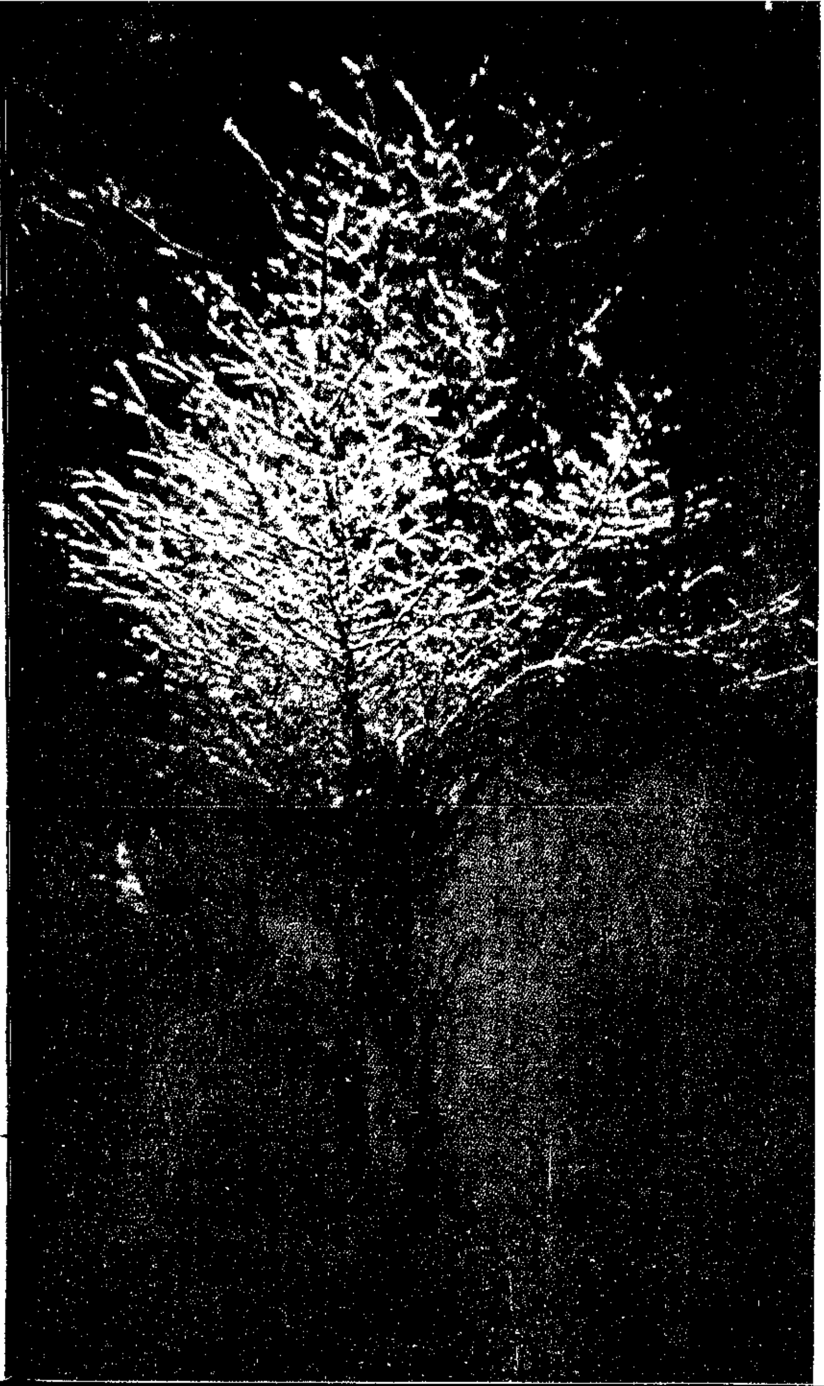

القريب، عرفت حقًّا أنّ الله يريدني أن أكون له وأن يكون هو قسمتي إلى الأبد. فقط آنذاك، وبعد هذا النجاح، عرفت أنّ الله أصبح بالنسبة إليَّ شخصًا جديدًا، وأنا بدوري لا يمكن أن أكون بعد هذا اللقاء، كما كنت من قبله.

خاتمة: قصَّتان قصيرتان

أودّ أن أنهي قصَّة مسيرتي الخاصَّة بقصَّتَين قصيرتَين، تتَّصل كلّ منهما بخبرتي للصلاة ـ الحوار. الأولى تدور حول عادة التدخين عندي. لقد اكتسبت تلك العادة باكرًا في حياتي.

وخلال معركتي مع «النيكوتين» أحرزت بعض الانتصارات الصغيرة. ولكن لحظة الضعف تلك كانت دائمًا تعود. فأعدّ نفسي «بسيجارة واحدة لا غير»، وكانت تلك دائمًا بداية طريق العودة إلى سجن عادتي القديمة. ولمَّا تعدَّدت الأبحاث الطبّيَّة وتراكمت الدلائل على العلاقة بين السيجارة وأمراض متعدِّدة، من السرطان إلى أمراض القلب، مرورًا بكلّ ما تحدثه من خراب في الجهاز التنفّسيّ، عدت أحاول التخلُّص منها ولكن جهودي كانت دائمًا تبوء بالفشل. فشعرت بأنّ لا حول لي ولا

قوّة، أنا الذي كنت دائمًا أفخر بقوّتي وحرّيّتي. وكم كان إقراري هذا بالفشل صعبًا. وأخذ إقراري بضعفي يقودني إلى الشعور بشيء من الذنب.

وفيما كنت أصلّي ذات صباح، وفيَّ تَوق إلى أوّل فنجان قهوة مع السيجارة، شعرت بأنَّ الله يريدني أن أتحدَّث إليه في هذا الأمر. فبدأت حديثي بالإقرار بخجلي من نفسي أمامه، وأذكر أنّي أنهيت الحديث بإقرار مؤلم آخر إذ قلت له: «إنّي ضعيف ولا قدرة لي على التخلُّص من التدخين». ثمَّ ألقيت بنفسي على قدميه وكأنّي منهار تحت أعباء فشلي المتتالي في السيطرة على ذاتي.

فسمعت بعد ذلك صوتًا في داخلي يقول: «إنّ لديَّ القوّة أهبها لك، إذا طلبتها أنت».

«نعم أريد منك القوّة يا ربّ، أعطنيها وأعدك بدوري أن يكون لك عندي مفاجأة كبرى».

وكلّ ما يمكنني أن أقول هو إنّني منذ تلك اللحظة، وقد مرّ على ذلك بضع سنوات، لم أدخّن سيجارة واحدة. أذكر أنّي أحسست أحيانًا بدافع قويّ لأعود إليها، ولكنّني لم أفعل، والآن لم أعد أشعر أبدًا بالحاجة إليها. وأهمّ من ذلك أنّي لم أعد أذكر طعمها أبدًا، فكأنّني لم أدخّن أبدًا في حياتي.

شعوري بالحرّيّة الآن اكتسبته فقط من خلال قوّة الله فيَّ.

وبعد مضي بضعة شهور على ذلك الاختبار، وكان قد بدا لي جليًا أنّ الله قد زارني حقًّا مرّة أخرى، خاطبني وغمر إرادتي بقوّته، قال لي وأنا أصغي إليه في صلاتي: «إنّ عندي لك هدايا أخرى، وهي أهمّ بكثير من القدرة على التخلّص من التدخين. إنّ لديّ مواهب حبّ، وسلام أهبها لك، وكذلك موهبة الفرح الحقيقيّ والمعنى العميق لعملك اليوميّ».

«هاتها كلّها»، أجبته. «ها أنا بكلّيّتي انفتاح عليك، فادفع بها كلّها إليّ».

فبدت لي بسمة حبّ على ثغره وقال: «لا ليس الآن، ولكنّك عندما نبلغ الحدّ الذي بلغته في قصّتك مع السيجارة، أي، عندما ندرك أنّك عاجز عن الحبّ بقوّتك الخاصّة، وأنّك لا تستطيع أن تمتّع نفسك بالسلام وحدك، أو تعطي حياتك معنى من خلال جهدك أنت. وعندما تشعر بأنّك لن تعيش الفرح حقًّا إلى أن أعطيك الفرح من عندي، عندما تدرك هذه الأمور كلّها، آنذاك ستتدفّق فيك نعمتي.

يبدو أنّ الله لن يعين كبريائي وزهوي، مخافة أن يغرّني. وهو لن يشجّع خرافة اكتفائي الذاتيّ. إنّي أفهم الآن كم شرّ الكبرياء أساسيّ، وكيف أنّ كبريائي يحول دائمًا دون عمل الله في حياتي. كذا أنا أسأل الله كلّ يوم نعمة التواضع، لأتمكن من معرفة حقيقة ضعفي. فيأتيني ويجعل من ذلك الضعف قوّة تحوّلني إلى ما يريدني هو أن أكون.

أمّا القصّة الثانية والأخيرة فقد حصلت لي فقط منذ نحو سنة. أنا عضو في رهبانيّة، وقد عيّن رئيسنا العامّ لجنة من لاهوتيّين ثلاثة ليطوفوا في أديرتنا ويقدّموا للرهبان حديثًا في موضوع «الالتزام بالمسيح اليوم». آخر تلك الأحاديث كان سيلقى في الجماعة التي تقيم في الجامعة حيث أدرّس.

هؤلاء هم الرجال الذين معهم أعيش وأعمل. أنا متمرّس على إلقاء المحاضرات، وذلك لا يرهبني عادة. ولكنّي أقرّ أنّني أحسست تلك الليلة باضطراب واضح. ظننت أنّني عرفت لماذا؛ لأنّه ما من نبيّ يكرّم في بلده... وبينما كان كلّ من رفيقي يلقي كلمته، كنت أُصلّي بصمت. وسألته أن

يرفع يده فوق رأسي فأهدأ، وأُحاول أن أتكلَّم بعمق وبلاغة.

وحدث ما خشيت حدوثه. فشلت تلك الليلة وكان فشلي عظيمًا. أنا أعتقد أنّ كلّ ما يحدث فيَّ يحمل دائمًا رسالة أُمّي. فإذا أصابني صداع مثلاً، قد تكون الرسالة أنّني أعيش في ضيق. وإذا ما عدت إلى سبب ذلك فلا بدَّ لي من أن أتعلَّم شيئًا جديدًا عن نفسي. أنا لا آخذ جرعة مسكّن من دون أن أسأل ألمي ما الذي يريد أن يقول لي. فتفحّصت الاضطراب الذي انتابني تلك الليلة، وفعلت ذلك على هدى نور المسيح. فسمعت في داخلي كلامًا كان له الأثر العميق في حياتي. قال:

«أنت مضطرب لأنّك تهيِّئُ نفسك لتقدِّم نوعًا من المسرحيَّة. تريد أن تبهر إخوتك، فيدركوا كم أنت عالِم وذكيّ، وأنا ليس فيَّ حاجة إلى مسرحيَّة، بل إلى عمل حبّ. وليس في إخوتك حاجة إلى رهبتك بل إلى حبّك».

رسالة المسيح هذه نفذت إلى صميم وجودي. فأدركت فجأة أنّ الكثير ممَّا كنت أقوم به كان مسرحيًا، هدفه الأوّل خلق إعجاب عند الآخرين.

كنت أتمكّن عادة من السيطرة على ذاتي فلا أضطرب، ولكن مثل هذا الطموح ينخر الجسم من الداخل. وآلام الأنانيّة تثقل الحياة فتبدّد من طاقتها وتحوّل سلامها إلى اضطراب.

قرأت عن إحدى المغنّيات أنّها، قبل أن تدخل المسرح، كانت تقف وراء الكواليس وتتّجه نحو أفراد الجمهور رافعة ذراعيها تقول لهم: «إنّي أحبّكم، إنّي أحبّكم، إنّي أحبّكم!» وبعد ذلك كانت تخرج لتغنّي لأولئك الذين أحبّتهم، وكانت دائمًا تشعر بارتياح لأنّ غناءها كان عمل حبّ.

في ذاك المساء، وقت تحدّثت إلى جماعتي في الدير، كم تمنّيت لو كان حديثي إليهم فعل محبّة. كنت أودّ لو قلت لهم في نهاية حديثي: «أنا لا أعرف هل إنّ كلامي إليكم مثقّف مفيد، ولكنّي أعرف يا إخوتي أنّني في تلك اللحظات أحببتكم.

أودّ أن أقول لك أنت هذا الكلام، أيّها القارئ العزيز. أنا لا أعرف ما مدى نفع قصّتي في نظرك. قد تكون متقدّمًا جدًّا في صلاة الحوار هذه، وربّما أنّك سبقتني بأشواط. فما بُحتُ به إليك من خصوصيّاتي، لاسيّما اعترافاتي بضعفي وقلّة أمانتي،

كان مكلفًا في نظري، ومجرّد فكرة تعميمها في كتاب أحدث بعض الضيق في نفسي. ولكنّي أريد أن أقدّمها لك. إنّ أعظم عمل حبّ هو البوح بالذات. ونحن لا نعطي شيئًا إذا لم نُعط من ذواتنا. آمل أن تقبل هديّتي إليك كما عنيتها: فعل حبّ. باركك الله.

جان پاول اليسوعيّ
جامعة لويولا
شيكاغو - إلينُوي ١٩٧٣

المحتويات

الطفولة: الخطوات الأولى ٧
المراهقة: تحرّكات تخطّت في معناها كلّ توقّعاتي ٩
الدعوة: «ما أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم» ١٢
بذور أزمة ١٥
أولى عواصف الشكّ ١٦
«إنّه استوقفني»! ١٧
تعالَ تعالَ: لقد حضر زمن الشدَّة ٢١
هجمات وهم: هنالك ما هو أكبر من اللّه ٢٥
في ضعفي، قوّته وطول أناته ٢٨
الرسامة: كنت أودّ أن آتي راكضاً، ولكن ٣٠
الأوهام القديمة لا تموت... أقلّه لا تموت بسرعة ٣٤
النجاح، ما أجمله!... ولكن ماذا بعده؟ ٣٥
أسبوع قصير ونتائج بعيدة المدى ٣٨
إختار ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء ٣٩
مَن هو هذا الذي يشفي كلّ مرض؟ ٤٢
إنّه زمن الربّ: إسهروا وصلّوا! ٤٧
ربيعٌ لنفسي ٥١

١ ـ إمتحان الوقت ٥٣
٢ ـ إمتحان الواقع ٥٤
٣ ـ إمتحان المحبّة ٥٤
صلاتي: حديث مع اللّه ٦٠
الإصغاء إلى اللّه ٦٦
قدرات إصغائي الخمس ٧٠
عقلي ٧٠
إرادتي ٧١
عواطفي ٧٣
مخيّلتي ٧٤
ذاكرتي ٧٦
الحاجة إلى صلاة ـ حوار مع اللّه ٧٦
خاتمة: قصّتان قصيرتان ٨١

صدر في سلسلة «مؤلّفات الأَب جان پاول اليسوعيّ»

١- **لماذا أخشى أن أحبّ؟**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٦).
٢- **لماذا أخشى أن أقول لك مَن أنا؟**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٦).
٣- **حبّ بلا شروط**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٦).
٤- **إنَّه استوقفني - مسيرتي في الصلاة -**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٥).
٥- **كمال الإنسان في ملء الحياة - حياة جديدة من خلال رؤية جديدة-**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٣).
٦- **سرّ البقاء في الحبّ**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٣).
٧- **السعادة تنبع من الداخل**، تعريب المطران بولس الصيَّاح. (ط٤).
٨- **فنّ التواصل - أنتَ وأنا والذات الحقيقيّة**، تعريب المطران بولس الصيَّاح (ط٢).
٩- **رحلة في فصول الحياة**، تعريب المطران بولس الصيَّاح (ط٢).
١٠- **ها أنذا واقفٌ على بابك أقرعه**، تعريب المطران بولس الصيَّاح.

الصفّ : شركة الطّبع والنّشر اللّبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مؤسّسة دكّاش للطباعة

٢٠٠٧/١٠/١٥-١,٥-١٥٠٤

Panarion
Tel : 24143106
01000550 20.00
إنه استوقفني

هذه شهادة جان پاول
الحميمة والفريدة،
إنَّها قصَّة لقائه الشخصيّ
بالله في الصلاة.

يروي هذا الكتيّب مسيرة جان پاول الروحيّة بكلّ أبعادها المؤثّرة، من زمن الطفولة إلى سنيه الناضجة. ويرى الكاتبُ الصلاةَ في حياته علاقةَ حبّ عميقة، فهي في عمقها بوح وإصغاء، وانفتاح وثقة.

إنّ العطاء الصادق الذي لا يعرف الحدود هو الذي يقرّب الإنسان من الله: تلك هي قناعة پاول في عمقها. وهذه القصّة المؤثّرة، قصّة خبرته الشخصيّة في الصلاة والتأمُّل، إنَّمَا هي إشراك المؤلِّف قرّاءه الكُثُر في ما يملأ نفسه من دفء وروحانيَّة.

منشورات:
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب: ١٦٦٧٧٨
الاشرفية، بيروت ١١٠٠ ٢١٥٠
لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-1149-7
9782721411495

Panarion
Tel : 24143106
01000550 20.00
إنه استوقفني

هذه شهادة جان پاول الحميمة والفريدة، إنَّها قصَّة لقائه الشخصيّ بالله في الصلاة.

يروي هذا الكتيّب مسيرة جان پاول الروحيّة بكلّ أبعادها المؤثِّرة، من زمن الطفولة إلى سنيه الناضجة. ويرى الكاتبُ الصلاةَ في حياته علاقةَ حبّ عميقة، فهي في عمقها بوح وإصغاء، وانفتاح وثقة.

إنّ العطاء الصادق الذي لا يعرف الحدود هو الذي يقرِّب الإنسان من الله: تلك هي قناعة پاول في عمقها. وهذه القصَّة المؤثِّرة، قصَّة خبرته الشخصيّة في الصلاة والتأمُّل، إنَّما هي إشراك المؤلِّف قرّاءه الكُثُر في ما يملأ نفسه من دفء وروحانيَّة.

منشورات:
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب: ١٦٦٧٧٨
الاشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-1149-7
9782721411495